

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com/

من أوراق

أبي الطيّب المتنبّي

(الطبعة الثانية)

تقديم وتحقيق :

محمد جبريل

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com/

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

أريــد من زمنـي ذا أن يبلغنـي   ما ليس يبلغـــه من نفسه الزمن

* * *

لتعلــم مصـر ومـــن بـــالعراق   ومـن بـالعواصم أنـي الفتـــى
وأنـي وفيـــت وأنـــي أبيـــت   وأنـــى عتـوت على من عتــا

* * *

يقولون لى ما أنت فى كل بلـدة   وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن يسمى

* * *

تعد ذنوبى عند قومـى كثـيرة   ولا ذنـب لى إلا العـلا والفضائل

* * *

وشـعر مدحـت بـه الكركـدن   بيـن القريــض وبيـــن الرقـــى
فمـــا كان ذلك مدحـــا لـه   ولكنـــه كان هجـــو الـورى

* * *

فبهـذا ومثلــه سـدت يــا كــا   فــور واقتدت كل صعـب القيـاد
وأطـــاع الــذى أطاعـك والطا   عـــة ليســت خلائـــق الآسـاد

* * *

نامت نواطير مصر عن ثعالبهـــا   فقد بشمـــن وما تفنى العناقيـــد

* * *

ماذا لقيـــت من الدنيا وأعجبـه   أني بمـــا أنا شــاك منه محســود

« أبو الطيب المتنبى »

حكاية هذه الأوراق :

تباينت الروايات : فى أى الأماكن ترك أبو الطيب المتنبى[1] هذه الأوراق ، ومن الذى عثر عليها للمرة الأولى . قال البعض إن الأوراق عثر عليها ضمن متعلقات أبى الطيب ، فى الموضع نفسه الذى شهد معركته الأخيرة ، ومصرعه . ورواية ثانية ، أنها كانت ضمن ماحمله أحد اللصوص من متاع المتنبى ، أودعها بيته القريب من بغداد ، ولحقته الوفاة دون أن يدرك قيمتها . فطن الأحفاد لخطورة ماتحويه ، فأذاعوه . ورواية ثالثة ، أن أحد المارة وجد حقيبة صغيرة ، فى الموضع نفسه الذى صرع فيه المتنبى ، فحملها

---

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى . ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة هـ . نشأ بالشام ، وأقام بالبادية ، وفيها تعلم اللغة والشعر . وقد تفهم - فى نشأته - تعاليم القرامطة ، ومارس طقوس الشيعة . تؤكد غالبية الروايات أن المتنبى عربى الأبوين ، وأن أباه كان سقاء فى الكوفة ، وإن ذهبت اجتهادات إلى أن غموض طفولة المتنبى ، دفع الحاقدين عليه للادعاء بأن أباه كان سقاء وأنه انتقل به من الكوفة إلى الشام . ولما سئل المتنبى عن نسبه ، لماذا يكتمه ؟ .. أجاب : إنى أنزل دائما على قبائل العرب وأحب ألا يعرفونى، خيفة أن يكون لهم فى قومى ترة (ثأر) .

إلى بغداد ، وفحصتها الأعين الخبيرة ، فأعطت المقابل الذى استحوذت به عليها ، وظلت فى موضعها من مكتبة خاصة ، حتى قيض الله كاتب هذه السطور ، فأخرجها إلى النور .

* * *

أما السؤال الذى طرح نفسه ، قبل أن أعد هذه الأوراق للنشر ، وبعد إعدادها كذلك ، فهو : هل كتب أبو الطيب ما كتب فى صورة مؤلف ، يروى أحداث رحلته فى مصر ، أو أن أوراقه مجرد ملاحظات أقرب إلى المذكرات اليومية ، التى يكتبها بعض المشتغلين بالحياة السياسية والفكرية فى حياتنا المعاصرة ؟

أياً كان الجواب ، فإن هذه الأوراق التى كتبها أبو الطيب المتنبى إبان إقامته فى مصر ، وبعدها ، إلى مصرعه ، كان ينبغى أن تحقق ، وتنشر ، بحيث يتاح للأجيال الحالية أن تتعرف إلى جوانب لم يسبق كشفها فى حياة المتنبى ..

وقد حرصت فى تحقيق الأوراق — وأعتذر لضياع بعضها ، وطمس كلمات ، أو حروف ، بعضها الآخر - أن أسود ما كتبه أبو الطيب فى زمانه ، لا أغير كلمة ولا حرفاً ، ولا أحذف أو أضيف . إنما أشرح ما يطلب الشرح ، وأسلط الضوء على الأعلام والأماكن والأحداث ، بما يعين على فهم الأوراق ، واكتناه بواعثها ودلالاتها.

وأملى أن تجد هذه الأوراق اهتماماً ، يساوى قيمتها التاريخية والأدبية ، وما بذل فيها من جهد كى ترى النور .

والله ولى التوفيق ،،

محمد جبريل - مصر الجديدة ١٩٨٦

الأوراق من ٦ إلى ٨ :[١]

مصـــر ...

وصلت إليها فى مطلع الصباح . الشوارع تتثاءب ، وغلالة رمادية تلف الناس والأشياء ، والمشربيات لا تبين عما وراءها ..

قطعت - وأتباعى - الطريق دفعة واحدة ، من الرملة إلى بلبيس[٢] فالفسطاط[٣] . دخلت من باب هائل الارتفاع (علمت - فيما بعد —

---

(١) لاحظنا أن المتنبى لم يشر إلى تاريخ كل حادثة بتوقيتها . ربما لأن كتابة المذكرات والسير الذاتية - بصورتها الحالية — لم تكن معروفة آنذاك . وقد فضلنا - بديلاً لذلك - أن نشير إلى الأوراق بأرقامها المسلسلة .

وبداية الأوراق من الصفحة السادسة ، بما يعنى أن المتنبى كتب تمهيداً ، أو مقدمة ، استغنى عنها فيما بعد ، أو أنها فقدت مع أوراق أخرى ، سيأتى ذكرها فى حينه .

(٢) بلبيس : هى مدينة بلبيس الحالية . كان بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ . وقد ذكرها المتنبى ، فقال :

جزى عرباً أمست ببلبيس ربها ... بمسعاتها تقر بذاك عيونها
كراكر من قيس عيلان ساهراً ... جفون ظباها للعلى وجفونها

(٣) الفسطاط : هى أول مدينة بناها العرب فى مصر . وقد بناها عمرو العاص (٢١هـ) وكان موقعها بين القاهرة ومصر العتيقة .

أن اسمه باب الصفا ، منه تخرج العساكر ، وتعبر القوافل) . لم يكن أحد في استقبالي ، وإن كنت أعرف مقصدي . سألت عن قصر الأستاذ أبي المسك كافور[1] فأبدى الناس عجبهم ، وإن أشاروا بعبور شوارع وأخطاط[2] وأبواب ، كي أصل إلى القصر المنشود .

حرصت على ركوب الحصان . حرصت على الأمر نفسه لأتباعي : ولدي محسد ، وتابعي مسعود ، وقلة من الخدم والعبيد ، حتى لا أبدو

---

(١) يقول صاحب " الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (ص ١١٠ ، ١١١):

" وكافور هذا ، عبد أسود خصيّ مثقوب الشفة السفلى ، بطين ، قبيح القدمين ، ثقيل البدن ، لا فرق بينه وبين الأمة . وقد سئل عنه بعض بني هلال، فقال :

رأيت أمة سوداء تأمر وتنهى . وكان هذا الأسود لقوم من أهل مصر يعرفون ببني عياش ، يستخدمونه في مصالح السوق . وكان ابن عياش يربط في رأسه حبلاً إذا أراد النوم . فإذا أراد منه حاجة ، جذبه بالحبل لأنه لم يكن ينتبه بالصياح . وكان غلمان ابن طغج يصفعونه في الأسواق كلما رأوه ، فيضحك ، فقالوا : هذا الأسود خفيف الروح . وكلموا صاحبه في بيعه ، فوهبه لهم ، فأقاموه على وظيفة الخدمة . ومات سيده أبو بكر بن طغج وولده صغير . وتقيد الأسود بخدمته . وأخذت البيعة لولد سيده ، وتفرد الأسود بخدمته ، وخدمة والدته ، فقرب من شاء وأبعد من شاء ، فنظر الناس إليه من صغر هممهم ، وخسة أنفسهم ، فتسابقوا إلى التقرب إليه وسعى بعضهم ببعض حتى صار الرجل لايأمن أهل داره على أسراره ، وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده . ثم ملك الأمر على ابن سيده . وأمر ألايكلمه أحد من مماليك أبيه ، ومن كلمه أتلفه . فلما كبر ابن سيده ، وتبين ما هو فيه ، جعل يبوح بما في نفسه في بعض الأوقات على الشراب ، ففزع الأسود منه ، وسقاه سماً فقتله ، وخلت مصر له " .

(٢) أخطاط : مفردها " خط " ، وهي الحارة . وكانت هذه هي التسمية إلى إنشاء القاهرة .

في الأعين كالآلاف من السابلة والعامة وذوي المهن الحقيرة . أمرت ، فأحسن الخدم اختيار جوادي ، وطهمته ، وكسوته ، فبدا مليحاً يسر الناظرين . مشاعر الاعتزاز تمور في داخلي للنظرات المتطلعة ، المشوبة بالإعجاب .. تتقلص يداي على المقود ، وأطمئن إلى الأتباع والأمتعة في جياد أخرى خلفي . لا يعرفون أبا الطيب ، وإن حدسوا عظمة هذا الوافد ، تبين نظراته المتطلعة عن غربته .

* * *

كأنما العرب خلقوا للأحقاد . سيف الدولة يهبني لكافور بسوء تدبيره ، وقلة تمييزه . خلفت في الشام أبا فراس . وأبا الحسين الناشئ[1] وأبا القاسم الزاهي[2] وأبا علي الحاتمي[3] وغيرهم عشرات ، بذلوا المداهنة والملق ، والقصائد التي تخفض ولا ترفع . أحكموا المكائد والمؤامرات ، فبات سيف الدولة غضباً خالصاً . قررت أن أترك لهم الجمل بما حمل ، فأهجر الشام إلى بلاد أخرى ، غيرها ، من بلاد العرب .

ناقشت أصحابي : أي البلاد نتجه إليها ؟ . اختاروا العراق ،

---

(١) أبو الحسين الناشيء : شاعر مجيد من أهل بغداد . له قصائد كثيرة في أهل البيت . وكان من الشعراء المقربين إلى سيف الدولة .

(٢) أبو القاسم الزاهي : من أهل بغداد . كان من أشهر شعراء عصره . أكثر قصائده في مدح آل البيت ، وإن كتب مدائح في سيف الدولة والوزير المهلبي وغيرهما . .

(٣) أبو علي الحاتمي : هو محمد بن الحسن المظفر . كان من المهتمين بنقد الشعر ، وخدم سيف الدولة مع أبي علي الفارسي وابن خالويه وأبي الطيب اللغوي وغيرهم . وكان على صلة بالوزير المهلبي .ويضمر كل منهما للمتنبي عداء شديداً .

واخترت مصر . لم يكن اختيارى وليد اللحظة ولامصادفة . أسرفت ـ فى قصائدى ـ فى النّيل من معز الدولة ، والنّيل من الخليفة نفسه . أهملت الحيطة والحذر ، فرميت ناس العراق بالجبن والخوف وغلبة الشهوات .باتت الطريق إلى بغداد ـ من يومها ـ غير ممهدة ولا مأمونة : زاد رسل الفسطاط . تعددت زياراتهم السرية إلى حلب ، ضمنوا حماية الإخشيدى ، ولوحوا بالأمل الذى كنت أتوق ....[١]

آذانى الإخشيدى من قبل بواسطة لؤلؤ ، نائبه فى حمص . صدق ادعاء نبوتى ، فأسرنى ، وأودعنى السجن ، حتى تبت عن الذنب الذى لم أرتكبه . هل يستقيم ادعاء النبوة وكتابة الشعر ؟!..

عفا اللّه عما سلف . الطريق وحيدة ، وواضحة ، إلى الفسطاط . الأمن والأمان . الحكم والسلطان . لا بد أن يلقانى الأستاذ أبو المسك كافور بما يليق بمنزلتى . ما أتيت إلى مصر إلا وقد شغلت بى الألسن ، وعمرت قصائدى مجالس الأنس ، واستعانت بها أقلام الكتاب ، وأقوال الخطباء ، ولحون القوالين والمغنين ، وسهرت فيها الأعين ، وكثر الناسخ لشعرى ، الغائص فى بحرى ، المفتش عن جمانى ودرى ، فشرق شعرى حتى ليس للشرق مشرق ، وغرب حتى ليس للغرب مغرب ..

تكفى ثلاث قصائد ، وربما قصيدتان . أتحدث عن مناقب الأستاذ ، ومآثره . يهبنى ما عجزت مدائحى فى سيف الدولة عن تحقيقه ، وما كاد تلميح رسل الأستاذ به يبدو تصريحاً : ولاية عسكرية فى صيدا ، أو فى ...[٢] .

(١) هكذا بياض فى الأصل .

(٢) صيدا : إحدى مدن الشام . وبقية الكلمات مطموسة .

كان وصولى إلى دمشق هو المعبر ـ الذى لا معبر سواه ـ كى أصل إلى مصر . الوالى ـ عبيد اللّه بن طغج[١] ـ فى خدمة كافور . ما أسرع ما تصل كافور أنباء وصولى ، وما أيسر أن يطلب استقبالى فى مصر ، وأن أنزل فى ضيافته .

* * *

وصلت فى الضحى إلى قصر الأستاذ بخطة سوق العسكر . سامق البنيان ، أشبه بقلعة أو بحصن . أحاطت به الحدائق والمياه الجارية لا أدرى من أين تأتى ، ولا إلى أين تنتهى ؟ ..

أمرنى الأعوان ، فخلعت بالباب نجاد سيفى ..

كافور على عرشه . من أمامه وحوله الأعوان والأتباع . ميزت من بينهم ـ لكثرة ما سمعت من أوصافه ـ الوزير ابن الفرات[٢] وهؤلاء الذين قدموا إلىّ لتعرفنى بهم أيام القاهرة التالية : ابن الخصيب ، قاضى مصر[٣] ، ونقيب الطالبيين عبد اللّه بن طباطبا ، والشريف بن محمد العلوى ، والوزير القبطى أبو اليمن قزمان بن مينا ، وبدر بن هلال القاضى ، وصالح بن رشدين الكاتب ، وسمول الإخشيدى قائد العسكر ، وأبو إسحاق النجرمى النحوى ، والناشئ

(١) ابن طغج : هو أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج أمير الرملة من قبل الإخشيد . اتصل به المتنبى سنة ٣٣٥ هـ .

(٢) ابن الفرات (٩٢١ ـ ١٠٠١ م) هو جعفر بن الفضل بن جعفر ، من بنى الحسن بن الفرات . ظل وزيراً مدة ولاية كافور . ثم قبض عليه ابن طغج ـ عقب موت كافور ـ ثم أطلق سراحه ، فنزح إلى الشام . يكنى بابن حنزابة ، نسبة إلى أم أبيه الفضل .

(٣) ابن الخصيب : هو قاضى مصر زمن كافور الإخشيدى . كانت له قدرة عالية على الرد على العلماء المعاصرين له ، ووضع المؤلفات الخاصة بتلك الردود . وكان عظيم المكانة لدى كافور .

الشاعر ، والكندى وابن القاسم والبحترى[١] وغيرهم من كبار أهل الدولة وعلماء الدين والوجهاء .

بدوا لا شئ فى القاعة الفسيحة ، زينت جدرانها وسقوفها ، بالنقوش والتهاويل ، وطنافس جميلة افترشت الأرض ، وزرابى[٢] تناثرت فى الأركان ، ومساند تطمئن إليها الظهور حين تجلس ..

هل أناديه بالأستاذ ، اللقب الذى أطلق عليه ، منذ عهد إليه الإخشيد بتربية ولديه ؟ .. أو أدعوه أبا المسك ،كما كناه الخليفة العباسي .. أو اللابى ، نسبة ـ كما عرفت ـ إلى إقليم اللاب من بلاد النوبة ؟..

تظاهرت ـ عند دخولى ـ بتقبيل الأرض ..

ـ أهلا بشاعر العرب .. أهلا بأبى الطيب ..

أضاف وهو يهم من مجلسه :

ـ لقد أبطأت علينا كثيراً .. والدولة لا تكمل عظمتها إلا بمثلك . إنك ستكون فى ضيافتى ، وأرجو أن تطيب لك الإقامة . أقبل على أبا الطيب ..

البداية لا بأس بها . أقبلت عليه . تظاهرت بتقبيل يده ، فسحبها ، وأعفانى من الحرج . جذبنى من ذراعى ، فأقعدنى بجانبه .

* * *

قبل أن أدخل عليه ، كانت الروايات قد تحدثت ، وأفاضت ، عن خَلقِه وخُلقِه ، طريقته فى الحكم . كيف يسوس الجماهير ، ويحرك الأعوان . لم تختلف صورته الحقيقية كثيراً عن تلك التى

---

(١) الكندى : مؤلف كتاب " فضائل مصر " الذى أفاد منه المقريزى كثيراً، وابن القاسم : شاعر غنائى مشهور ، والبحترى : عالم النحو الشهير .

(٢) زرابى : شلت .

رسمها تعدد الروايات : ممتلئ الجسم إلى حد السمنة ، متفلفل الشعر ، أسود البشرة ، مثقوب الشفة السفلى ، تلتمع عيناه ببريق كأنه التوجس ، أو محاولة استشفاف ما يضمره الواقف أمامه . هذا هو الذى ولى حكم مصر ببشارة منجم ، دفع له درهمين . العبد الخصى المملوك لمن لا يعرفه أحد من أهالى مصر . حمل نير المعصرة . داس الكسب ، جر العجلات ، افترش الأرض ، تمرغ فى الزيت ، لقى الكثير الكثير من العنت والإيلام ..

رأى فيه الإخشيد النجابة والهمة . قال ـ يوماً ـ فى يقين : واللّه لا ورث دولة ابن طغج[١] إلا هذا العبد .

حاول سيف الدولة أن يظفر ـ فى أعقاب وفاة الإخشيد ـ بشئ . أخذ دمشق ، ومضى إلى الرملة . بدا أبو القاسم أونوجور ـ ابن الإخشيد ، ومن تولى الحكم بعده ـ متخاذلاً ، منهاراً ، لا يقوى على التصرف . خرج كافور بالعساكر ، وضرب الدباديب على باب مضربه ، فى وقت كل صلاة ، وسار فظفر وغنم . سبقه صيته فى عودته إلى مصر . هلل الناس لانتصاره ، وهتفوا له . عزل أونوجور ، وخصص له أربعمائة ألف دينار فى العام ، وولى نفسه مكانه . أحبه الناس والوزراء وأهل السيف وأهل العمامة ، والتفوا حوله . خلع وحمل وأعطى ، وانبسطت يده ، فعزل وولى ، وأعطى وحرم ، وثابر على تدبير الأمور ، تساعده الأقدار والأعوان ، حتى عظم شأنه ، فصار ـ فى ألسنة الناس ـ أبا المسك ، والأستاذ ، واكتسب محبة حتى هؤلاء الذين يعيبون عليه سواده . ودعى له على منابر مصر والشام والحجاز .

* * *

---

(١) محمد بن طغج الإخشيدى (... ـ ٩٣٥ م) من أصل إيرانى . تولى الحكم فى مصر وسوريا فى القرن العاشر الميلادى .

فى مساء اليوم نفسه ، كان الوزير ابن الفرات قد صحبنى إلى دار أبى بكر القرية من الساحل . أمر لى كافور بها ، تطل على الصحراء والنيل والمدينة بقصورها وبيوتها وبساتينها وشوارعها وأخطاطها . الطابق الأعلى مخصص للنوم ، والإيوان ـ فى الطابق الأرضى ـ للمعيشة اليومية فى أثناء النهار ، وللاستقبالات ، والضيافة . ملحق بالبيت إسطبل للدواب ، وحواصل لحفظ المؤن ، وتحيط به ، وتتوسطه ، الشاذروانات والفساقى ، تحف بها أحواض الزهور وأنواع الرياحين ، وأصناف الشجر والورد ..

١١ ـ ١٢

الفسطاط ..

نزلت إليها عصر اليوم الثالث . تمتد على طول شاطئ النيل . محل الأمراء ، ومنزل حكمهم . إليها تجبى ثمرات الأقاليم ، وتأوى الكافة . مدينة كبيرة ، عظيمة ، كثيرة الخيرات ، رخيصة الأسعار ، واسعة الرقعة . يحيط بها سور محكم ، وأبواب مشهورة . مبانيها بالقصب والطوب ، أو بالبوص والنخيل . يقطن فيها العرب المسلمون والأقباط جنبا إلى جنب . بها بساتين فخيمة ، ومتنزهات تكسوها الخضرة ، وأسواق كثيرة ، وشوارع وأخطاط ودروب ورحاب وأزقة . تزدحم بالناس من الباعة والمارة وأرباب المعايش وأصحاب اللهو والملعوب ، وإن بدت ضيقة بالقياس إلى شوارع بغداد ، أو الشام . بها من الحركة والسير فى كل وقت ما لا ينقطع. الحمير وسيلة المواصلات الرئيسية . أما الخيل ، فلا يركبها سوى الوزراء والوجهاء والجنود . بعض الأخطاط لا يستطيع المرء أن يمر فيه من ازدحام الناس إلا بمشقة . يتفرع بعضها من بعض على غير نظام محدد ، وتعرجاتها بلا ضابط . وربما انتهى السير فى إحداها

بانسداد . وحين تخلى السبيل لقباب[1] فإنها للنساء ، ينتقلن فيها . الشوارع والأسواق المسقوفة (تسمى قيساريات) تضاء بالمصابيح، فضوء الشمس لايصل إليها ، ربما لتوفير الظل ، وحماية السابلة من شمس الصيف اللاهبة ، والكثير منها يغلق ليلاً من طرفيه ، توخيا للأمن . والفسطاط تزخر بالوكايل والخانات والمتاجر التى تبيع من كل صنف ، والمساكن الكثيرة ، والبساتين العظيمة ، والحمامات ، والشون ، والمناظر ، والرباع ، والفنادق ، والبرك ، والخلجان ، والجزائر ، والرياض ، والدور ، والقصور العالية ، يصل ارتفاع بعضها إلى سبعة طوابق ، وآلاف الدلاء تتدلى من شرفات بيوتها المطلة على النيل . مياه النيل ترفع بواسطة الأسطال والحبال والبكر ، وعدد القوارب فيه أضعاف عددها فى دجلة والفرات وبردى . بها ما لايكاد يحصى من الجوامع والمساجد والزوايا والتكايا ، أشهرها جامع عمرو بن العاص ، لا تخلو ـ ليل نهار ـ من القراء والفقهاء والمنشدين وطالبى التوبة . تعدد المناسبات الدينية يبين عن مشاعر غلابة . على جانبى الأسواق ، حوانيت بها كل ما يحتاجه المرء . ثمة الرفاءون والحباكون والرسامون وباعة الأقماع والبزازون والخلعيون والمجبرون وباعة الظرائف والمغازل والكتان والشمع والصاغة والسروجية والحدادون والدقاقون والصيارفة والصياقلة والطرازون والازاريون والجدالون والأساكفة والدباغون والنجارون والحذاءون والخشابون .. وأنواع المآكل والمشارب والأمتعة تزيد عن الحصر . فثمة القصابون والملاحون والزياتون والجبانون والخبازون واللبانون والطباخون والشوايون والبوادرية والعطارون والخضريون والسماكون وباعة البقل ، وأصحاب الخضر

---

(١) القباب = الهوادج .

والفاكهة والأزهار .. والسقاءون يحملون الماء فى قرب كبيرة ، على ظهورهم ، أو فوق الجمال ، والماء يحفظ فى أزيار أو صهاريج، تحت الأرض أو فوقها ، عندما لايزيد البيت عن طابق واحد.

١٥ - ١٦

اختلفت - ظهر اليوم - إلى الجامع العتيق[١] . صحنه ممتلئ ، على الدوام ، بالطلبة والمريدين . يلزم الباب الخارجى مملوكان شاهران سيفيهما ، أمر الأستاذ ، فهما عن يمينى وشمالى كلما نزلت إلى الطريق ..

سرت - بعد الصلاة - فى الأسواق المحيطة . أطيل التأمل فى سوق القناديل شمالى الجامع . سمى بهذا الاسم لاقتصار سكناه على طبقة من السراة . أمام دار كل منهم قنديل . لا يتبدد إعجابى أمام تنوع معروضاته ..

تسابق الناس إلى لقائى . أظهروا بشاشة ووداً . غمرتنى مشاعر الانبساط لما استمعت إلى قصائدى من أفواههم ..

عرفنى أبو الوليد بن عيال - أحد مواطنى الأندلس — وعرفنى بنفسه. سألته عن ابن عبد ربه ، مليح الأندلس . كنت أحبه وأعجب بشعره . أنشدنى أبو الوليد ، من أبيات ابن عبد ربه :

يا لؤلؤًا يسبى العقول أنيقا   ورشاً بتعذيب القلوب رفيقا
ما أن رأيت ولا سمعت بمثله   درًا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه   أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة   ما بال قلبك لا يكون رقيقا

لما انتهى أبو الوليد من إنشاد القصيدة ، أعلنت إعجابى بالتصفيق . واستعدتها ، وقلت : يا ابن عبد ربه .. لقد تأتيك العراق حبواً ! ..

(١) الجامع العتيق = المقصود به جامع عمرو بن العاص .

١٩

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى   صديقًا فأعيا أو عدوًا محاجيا[١]

ليلة العمر ..

حتى الذين كنت أخشى حقدهم ، علت أصواتهم بالثناء والاستحسان . كافور على عرشه بادى الفرحة والسعادة . فرغت منها ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم . سلمة أولى فى درجات الصعود إلى المكانة التى أستحقها ، عصا موسى التى ابتلعت أفاعيل الحواة ..

علمت - فى اليوم الثالث - قبل أن أكتب هذه الكلمات — بتكاثر الأدباء فى سوق الوراقين . ينشدون نسخاً من القصيدة . غالى النساخون فى الثمن ، وفرغوا لنسخ القصيدة وحدها . شغلت أحاديث الأساتذة والطلاب فى الجامع العتيق . أتصور التأثير لما تصل القصيدة إلى حلب . يعرف سيف الدولة أنه دفع ثمن إنصاته إلى وشايات أبى فراس ، وسواه من الذين بذلوا الإساءة ، حين قصرت أشعارهم عن مطاولتى ..

وما كمد الحساد شيئا قصدته   ولكنه من يزحم البحر يغرق

٣٢ - ٣٣

حسن موقعى عند الأستاذ . مالت نفسه إلىّ ، وأحبنى . قربنى وأجازنى الجوائز السنية ، وأجزل لى العطاء . لم أتأخر عن مجلسه إلا لتوعك أو مرض ..

(١) هذا هو مطلع القصيدة الأولى التى ألقاها المتنبى مدحاً لكافور . وقد أخذ النقاد عليها - فيما بعد - أنها بدأت بذكر الموت فى مجال المدح .

لا حظت حرصه على أن يبتعد عن مواطن الشبهات ، وما يغرى بالفساد . فهو يقيم فى قصره يكاد لايغادره ، يدير منه شئون الدولة، ويستقبل الوفود ، ويجالس المريدين ، والأصفياء ، ويستمع ــ فى أوقات معينة ـ إلى شكايات الناس وتظلماتهم . من حوله ابن الفرات وسائر القضاة والفقهاء والشهود والأعيان والوجهاء . يسأل ، ويناقش ، ويستوضح ، وينصت إلى المشورة . يعلن رأيه ، فيقبله الجميع ، ويعملون على تنفيذه . يقصده المظلومون وأصحاب الحاجات ، فيلبى حاجاتهم وما يطلبون ، لا يرفع إليه رقعة إلا وقع عليها ، ولا يسأل فى حاجة إلا قضاها ، ولا يقدم على شئ فيه مساس بالحرمة أو الخلق الكريم ، ويصدع بالحق ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويقيم الهدى ..

روى لى ابن رشدين ، أنه كان يداوم الجلوس ، غدوة وعشية ، لقضاء حوائج الناس . وكان سريع المدمعة[1] يبكى لأقل موعظة ، ويتهدج ، ويمرغ وجهه ساجدا ، ويقول : اللهم لا تسلط على مخلوقا..

هالنى كرمه ، فهو لاينى يوزع عطاياه بين عالم وزاهد وفقير ، ولديه أموال خاصة بالفقراء والمحتاجين ، يجرى توزيعها بإشرافه ، ويجلب إلى قصره كل يوم : مائة خروف ، مائة حمل ، مائتان وخمسون أوزة ، خمسمائة دجاجة ، ألف حمامة ، مائة خابية ملأى بالحلوى ، يغيب فى بطون الآكلين ما يزيد على ألف وسبعمائة رطل من اللحم ، عدا الطيور والحلوى ..

عنى بالتشييد والعمران ، فبنى العمائر والقصور والدور والمساجد والزوايا والخوانق والحصون والقلاع والجسور والقناطر والطرق ،

(١) سريع المدمعة : أى أن عينيه سريعتا الاستجابة للدمع .

والعديد من الأسبلة والسقايات والمارستانات[1] والكتاتيب والحمامات والأحواض ومساقى الدواب ، أوقف عليها الكثير من الأموال والحبوس[2] ..

سهل الانتقال بين البلاد ، وازدهرت التجارة ، وكثرت الخيرات . وأقيمت أحياء وقرى جديدة ، وزادت رقعة الأراضى الزراعية ، فلم يعد الأغنياء يجدون فقراء ، يؤدون إليهم الزكاة ..

قرب منه العلماء والفقهاء ، وأجرى عليهم الرواتب والصدقات ، واجتمع على بابه من الأدباء والشعراء عدد كبير ، يجالسهم ويبرهم ويقدرهم ، بما يعطيهم من أموال ، وما يقدم إليهم من تكريم ..

صادقت ـ فى مجلسه ـ الأمراء والوجهاء وأهل العمامة والسيف وأهل القلم والرتب ، واستمعت إلى السير ، وأخبار الأمويين والعباسيين . وشاركت ــ أحياناً ــ بما أعلمه ، فلم أجاوز إلى سيف الدولة من قريب أو بعيد ..

لاحظت أنه يعتمد على المال والهبات والعطايا ، فى السيطرة على الجيش . أغدق الرواتب والمنح والهدايا على القادة والجند ، فاكتسب رضاءهم وإخلاصهم . حتى أنصار أولاد الإخشيد ، بذل لهم من المال والرعاية ، ما جعلهم يطمئنون إلى حكمه ، ويدينون له بالولاء .

قلت لعبد الرحمن السكندرى[3] ـ هذه الليلة ـ وهو يرافقنى إلى بيتى:

ــ بنى الأستاذ لنفسه فى قلوب الناس ..

(١) المارستان = المستشفى . (٢) الحبوس = أوقاف لوجه الله .

(٣) عبد الرحمن السكندرى : خلت كل المراجع من ذكر هذا الاسم . ومرد غياب الرجل عن كتب المؤرخين ـ فى تقديرنا ـ أنه لم يكن من أهل الدولة ، أو المشهورين فى زمانه ، وإن كان تأثيره فى تطورات الأحداث واضحاً ، كما سيأتى .

لم أفهم قوله :
ـ للمرء حواس أخرى غير الأذنين ..
أردف لنظرات التساؤل فى عينى :
ـ أعوان السيابى يهدمون كل ما يبنيه ..
وهو يضغط بيده المصافحة :
ـ غدا .. أدعو السيابى لزيارتك ! ..

٣٨ - ٣٩

أعفتنى الزيارات - فى مدى أيام ثلاثة - من مغـادرة البيـت . فيما عـدا ابـن الفـرات ، زارنـى الـوزراء وأهـل الدولـة وزعمـاء الصوفيـة وأرباب القلم والسيف وأهل النظر والقضاء . بذلوا الحفاوة والود ..

قدم السكندرى شاباً فى بداية العقد الرابع : حسن البلبيسى . لـم أره فى مجلس الأستاذ ، وإن أكد السكندرى - فى حضور الشاب ـ دوره فى حماية الدولة وأمن المواطنين . بـدا قريـب الشبه مـن عبـد الرحمن السكندرى فى قامته الطويلة ، المعتدلة ، وبشرته القمحيـة ، وعينيه البنيتين ، وشعره الأسود ، المنسدل على قفاه ، وإن حلق ذقنه وشاربه .أما السكندرى ، فقد أحفى الشارب ، وأطلق اللحية ..

سألنى حسن البلبيسى :
ـ هل أنت علوى ؟ ..
قلت :
ـ قال لى أبى إنى رضعت من امراة علوية ، من آل عبيد اللّه ..
فأنا إذن أخو العلويين من الرضاعة ..
قال البلبيسى :
ـ لماذا سميت بالمتنبى ؟..
قلت :

ـ اسأل من أطلق التسمية ..
قال :
ـ قيل إنه قد روى لك قرآن ..
قلت :
ـ لا أعرف غير القرآن الإلهى ..
قال :
ـ لكن النبوة تحتاج إلى قرآن ..
قلت :
ـ النبوة .. ولست نبياً !..
قال :
ـ اذكر ما تلوته على أهل البرارى من قرآنك ..
واعتدل فى جلسته ، كمن يهم بالتلاوة :
ـ « والنجم السيار ، والفلك الدوار . إن الإنسان لفـى أخطـار . امض على سننك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن اللـه قامع بك زيغ من ألحد فى دينه ، وضل عن سبيله » ...
قلت :
ـ هذه كلمات مخترعة ..
قال :
ـ فلماذا سميت نفسك المتنبى ؟..
غالبت ضيقى :
ـ قلت لك يا أخى إنى لست صاحب التسمية ..
برقت عينا عبد الرحمن السكندرى بالتماع غاضب :
ـ أسئلتك تسرف فى الإيلام . ما أعرفه أن حاسديه لاحظوا كثرة دوران أسماء الأنبياء فى شعره ، وتشبيه نفسهم بهم ، فميزوه بلقب المتنبى ..
قلت :

- إنما لقبت بالمتنبى لقولى :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العِدَى وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها اللـ ـه غريب كصالح فى ثمود

أذكر أنى سئلت ذات يوم : لماذا تكتم نسبك ؟..

قلت - عفو الخاطر - : إنى أنزل دائمًا على قبائل العرب ، وأحب ألا يعرفونى ، خيفة أن يكون لهم فى قومى ترة[1] .

هل ما زال نسبى يشغل الناس ؟!..

أنا أبو الطيب المتنبى ، الشاعر الذى يلتقى الناس حول أشعاره...[2] .

حذرنى السكندرى - عقب انصراف الشاب - من الكلمات التى قد تفقد براءتها فى أذنى قائد البصاصين ، وظيفة حسن البلبيسى ، غير المعلنة[3] ...

٤١ - ٤٣

عيد الغطاس[4] ..

حين دعانى عبد الرحمن السكندرى إلى رؤية الاحتفال به ، أبديت ترددى ، ثم اعتذرت :

(١) ترة = ثار . (٢) بقية الجملة غير واضحة .

(٣) البصاص فى زمن المتنبى ، هو المخبر ، أو الشرطى السرى ، فى أيامنا الحالية .

(٤) عيد الغطاس : عيد لأقباط مصر ، يشارك فيه المسلمون . يوافق الحادى عشر من طوبة . يحرص فيه البعض على أكل أطعمة معينة ، وعلى الغطس فى النيل ، اعتقاداً أن فى ذلك أماناً من المرض ، وطرداً للداء .

ألحف فى دعوته :

- هذه احتفالات عظيمة ، لا تتكرر إلا مرة كل عام ..

ذهبنا إلى موقع بالقرب من كنيسة قصر الشمع . شاهدت ما لم يتح لى مشاهدته من قبل : العشرات من النصارى يخرجون من الكنيسة إلى شاطئ النيل ، يرددون الصلوات بنغمات ملحنة ، وإن لم أتعرف إلى معانى الكلمات . يحمل غالبيتهم الصلبان المشهورة ، وفى وسطهم أسقف ذو وقار ، يعلو صوته - عكس ما يردده من صلوات - بلغة عربية ، واضحة ومستقيمة . يخطب فى الجموع المحيطة ، ويدعو للأستاذ ..

سعى الناس - من بعد - مسلمين ونصارى ، إلى النيل . نصبت الخيام على جانبيه ، ارتدوا فاخر الثياب ، وأبدوا الميل إلى الفرحة واللهو . استقلوا المراكب الصغيرة والزوارق . غابت - فى ابتعادها - أصوات الموسيقى والأغنيات والرقصات ..

- هل هذا هو الغطاس ؟..

قال السكندرى :

- غطسوا فى النيل عند السحر .. من يغطس فى تلك الليلة ، يأمن الضعف طيلة السنة ..

أضاف موضحًا :

- هذه بقية الاحتفالات ..

سعى البعض - ممن غادروا الكنيسة - إلى ناحية سوق الشماعين . قال عبد الرحمن لنظرتى المتسائلة :

- شراء الشموع ضرورة فى عيد الغطاس ..

أما بواعث الاحتفال[1] ...

(١) هكذا بياض فى الأصل

ظلت الدكاكين والأسواق مفتوحة إلى الصباح ، والسفن المضيئة تسير فى النيل . نمط من الحياة يغاير مألوف حياتى . أشاهد وأسال وأناقش وأسمع وأحاول كتم الشرود . غادرت البادية والشام وحلب وسيف الدولة ، لأظفر بالمكانة التى أستحقها . أتيت لهدف محدد ، فلا أجاوز الطريق إلى دروب وأحطاط لا شأن لى بها ..

٤٦ ـ ٤٧

لا جديد ..

اختلفت بين وقت وآخر إلى الجامع العتيق . مباءة نحل ، يشتار فيها طلبة العلم أثمار اللغة والأدب والشعر . يغشى مجلسى من أعرفه ، ومن لا أعرفه . يحفظون شعرى ، يأخذون عنى ، وأغريهم بالمساجلة ..

ابن جنى ، أين هو الآن ؟[1] كم أشتاق إليه . أول راد لديوانى ، وحافظى ، وناقلى ، ومحاورى فى الكثير من المسائل والدقائق . هل ما زال فى حلب ؟.. هل يلزم ـ ما زال ـ مجلس سيف الدولة ؟. يسألنى الرجل عن شىء من دقائق النحو والصرف فى شعرى . أقول له : سل صاحبنا أبا الفتح ، فإنه يعرف من شعرى ما أدرى وما لا أدرى . أضيف فى تأكيد : ابن جنى أعلم بشعرى منى .

ابتدرنى شاب ، عقب صلاة الظهر :

ـ نحن نزكى فى الشعراء ثلاثة هم أبو تمام والبحترى وبشار .. من عداهم أقل منزلة !..

---

(١) ابن جنى : ولد بالموصل ، وتوفى ببغداد فى ٣٩٢ هـ . وكان من أئمة النحو والعربية . وكان يحضر عند المتنبى فى حلب كثيراً ، ويناظر فى النحو . قال فيه المتنبى : هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس .. وقال : ابن جنى أعرف بشعرى منى .

غلقت على مشاعر الغضب بابتسامة ، اصطنعتها :

ـ إنى أرى فى شعراء الجاهلية المثل الأعلى للشعر ..

قال الشاب :

ـ ألا ترى فى شعراء زماننا من يطاولهم ؟..

قلت فى ثقة :

ـ ربما ابن الحسين وحده !..

قال إمام الجامع :

ـ قاتل الله الغرور !..

قلت :

ـ خليلى إنى لا أرى غير شاعر   فلى منهم الدعوى ومنى القصائد

قال الشاب :

ـ لقد امتدحت البحترى وأبا تمام فى زمن قريب ..

قلت :

ـ ولا زلت عند رأيى ..

ـ وما رأيك ؟..

قلت ، ربما دون أن أفكر :

ـ أنا وأبو تمام حكيمان .. والشاعر البحترى !..

قال رجل فى أواسط العمر :

ـ فماذا عن سرقاتك لحكم أرسطو ؟..

قلت :

ـ فلسفتى عن ابتداع لا اطلاع ..

قال الشاب :

ـ أرى فى بعض أبيات قصائدك توافقًا مع قصائد شعراء يسبقونك فى الزمن .. ليس فى المعنى وحده ، وإنما فى اللفظ أيضًا !..

قلت :

ـ طالما ألقى على هذا السؤال من قبل . وكان جوابى أن الشعر جادة .

قال الشاب :

ـ كان أبوك يبيع الماء فى الكوفة .. فمن أين جاءتك هذه النزعة المتعالية ؟..

قلت :

ـ لو أن أبى كان سقاء الكوفة ، ما اعتذرت عن ذلك ولا أنكرته ..

أضفت :

وكم من غلام علم المجد نفسه
كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا

٤٨

لو لم أر ما حدث بعينى ، ما صدقت : دخل جماعة من الخصيان السود . لا أدرى إن كانوا من داخل قصور الأستاذ ، أو قدموا من الخارج . دخلوا الإيوان الكبير ، تسبقهم ، وترافقهم ، طبول ومزامير وأهازيج ..

لمح ابن الفرات فى عينى الأستاذ نظرة إعجاب ، فصفق لأصحاب الشكاوى ، يأمرهم بالانصراف ..

خلت الساحة أمام المجلس إلا من الخصيان ، يغنون ، ويرقصون ..

بلغ الطرب بالأستاذ مبلغا ، فحرك كتفيه ، وهم بالنزول من كرسيه ، لمشاركة الخصيان رقصتهم ..

هتفت بعفوية :

ـ كيف يا أستاذ ؟..

لكزنى القاضى بدر بن هلال . تكرر ذلك منه كلما أبديت ملاحظة فى مجلس الأستاذ ، كأنه يختار الوقوف بجانبى لممارسة

فعلته القبيحة ، لا يتدبر مكانها ، أو إن كانت آلمتنى . كأنه يخشى ملاحظاتى أن تصل إلى أذن الأستاذ ..

لم يكن الأستاذ ـ كما رأيت ـ يضيق بالملاحظات . إذا غلبه الانفعال ، أوساير نفسه ، يبتسم ، ويهتز رأسه ، ويبتر القول الذى بدأه ، أو التصرف الذى ربما أقدم عليه بعفوية ..

٤٩

سألنى شاب فى سوق الوراقين :

ـ من كنت تخاطب بهذا البيت :

بعيشك هل سلوت فإن قلبى   وإن جانبت أرضك غير سالى

قلت :

ـ أنا لم أقل هذه الكلمات .. لقد زيدت فى قصيدة ، رثيت بها أم سيف الدولة ، لتفسد حالى عنده !..

قال الشاب :

ـ وهل أفسد حالك بالفعل ؟..

قلت ؟..

ـ لما سألنى سيف الدولة ، أنكرت هذا البيت ، مثلما أنكره الآن !..

أحب هذا السوق . ألفت ـ من قبل ـ ملازمة الوراقين والنساخين . ألفت الأقلام والأوراق والنسخ ، والتنقل بين الدكاكين ، وقراءة ما تصادفه يداى ، والاختلاف إلى مجالس العلماء والأئمة ..

٥٠

أرنو لثانى أيام الانتصارات . يجمعون مكرهم ، ويلقون حبالهم الرفيعة ، المتخاذلة . ألقى عصاى ، فتبتلع أفانين الحواة :

إنمـــا التهنئـــات للأكفـــاء ولمـــن يدنـــى مـــن البعـــداء
وأنا منـــك لا يهنـــئ عضـــو بالمســـرات سائر الأعضـــاء[1]

٥١

هـل هجـرت مؤامـرات أبـى فـراس ورفاقـه فـى حلـب ، لأواجـه مؤامرات من لا أعرفهم فى الفسطاط ؟..

قال لى ابن القاسم الشاعر :

ـ الملق فى قصيدتك أضعاف ما فيها من الشعر ..

أردف فى عجب :

ـ كيف يصبح السواد شمسًا ؟..

قلت :

ـ وكيف تصبح الزلازل رقصات فرح ، بما كان يتمتع به كـافور من فضائل[2] ..

قال فى عجبه :

ـ هذا أميرى .. ومن واجبى أن أشيد بمناقبه ..

قلت :

ـ وهو الآن أميرى .. ومن واجبى كذلك أن أشيد بمناقبه ..

ـ أنـت تمتـــدح مـــن كنـت تهجـو مثلهـم ، وتدعـو إلـى الخـــروج عليهم ..

(١) لعل المتنبى كتب هذين البيتين ، قبل أن يستكمل القصيدة (ثانى قصـائده فى مدح كافور) وقد ألقاها ـ فيما بعد ـ بمناسبة بناء قصر كافور الجديد بالقطائع ، بإزاء الجامع الأعلى على بركة الفيل ، بالقرب من حى طولون .

(٢) تشبيه السواد بالشمس جـاء فـى قصيـدة المتنبـى . أمـا تشـبيه الـزلازل برقصات الفرح ، فقد جاء فى قصيدة لابن القاسم .

هل يقصد الأستـاذ ؟.. فلمـاذا لا يذكـر الاسـم صراحـة ؟.. هـل يخشى أن أشى به ؟..

ـ قصائدى تعبر عن قناعة اللحظة التى أكتبها فيها ..

ـ ما أشد تغير لحظاتك !..

وما أسهل أن أهمـس باسـمك إلـى الأستاذ ، أو إلـى واحـد مـن المحيطيـن بمجلسـه ؟.. لكـن الهـدف يبيـن عـن تألقـه فـى الأفـق القريب ، فيبدد الظلال ..

٥٢

فاجأ المشهد كافورًا ، وفاجأنا . كان يتقدم الموكـب فـى طريقـه إلى قصره بخطة سوق العسكر . اعترضته امرأة وهى تهتف :

ـ ارحمنى يرحمك الله !..

دفعها أحد الحراس ، فسقطت على الأرض ..

بدا على الأستاذ غضب ، وأمر بقطع يد الحارس :

ـ هل تؤذى امرأة ؟!..

ذهل الأستاذ ، وذهلنـا ، لنهـوض المـرأة مـن عثرتهـا ، وتشـفعها للحارس ..

قال لمن حوله :

ـ اسألوها عن أصلها .. فما تكون إلا من بيت عظيم ..

قالت المرأة إنها علوية بالفعل . عظم الأمر على الأستاذ ، وقال :

ـ قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف !..

وأحسن إليها ، وواصل سيره .

٥٣ - ٥٤

جرت عصر اليوم واقعة غريبة ، ظلت شاغلى حتى جلست إلى الأوراق : لكزنى عبد الرحمن السكندرى بكوعه ، وهو يومئ بذقنه إلى الشيخ بدر بن هلال القاضى ، فى أقصى الصالة التى تناثر فيها رجال ، شغلتهم أحاديث جانبية ، وإن تحلق ثلاثة - اثنان فى أواسط العمر ، وشاب - حول القاضى ، استند إلى الجدار ، وأعطاهم انتباهه :

- هذا الشاب يسعى - بوساطة هذين الرجلين - عند الشيخ بدر فى تولى وظيفة بولاية الحسبة ..

همست بالسؤال :

- وما شأن القاضى بهذا ؟..

وهو يغمز بعينه :

- كلمته نافذة !..

أضاف ، قبل أن أسلم نفسى إلى الشرود :

- طلب مقابل التزكية مبلغ ذهب ثلاثمائة ..

أيقظ انتباهى :

- وماذا فعل الشاب ؟..

قال :

- علمت من أحد الرجلين - يسكن بالقرب من بيتى - أن الشاب سيدفع شيئا ، ويكتب الباقى عليه إلى المغل بحجة ..

هتفت بالدهشة :

- أى كلام ؟!..

استطرد :

- واشترط الشيخ أن تسجل الرشوة على هذا النحو ، كأنها عقد زواج أو بيع ..

كنت ألحظ - فى مجلس الأستاذ - مكانة القاضى الممتازة . يقدمه على سواه من الوزراء والوجهاء والأعيان . يزوره - أحيانًا - فى بيته بجبل يشكر(١) . يخلع عليه ، ويجزل له ، ويخصص له الجند والأعوان ، يقفون ببابه ، يعاونونه على أداء وظيفته ، ويدافع عن أحكامه مهما تلفعت بالقسوة ..

خلت السجون من نزلائها ، لأن السجن - فى تقديره - راحة . إنما ينزل العقاب الأشر على المخالف ، بحيث يكون مثلاً وعبرة . ليس القتل مجرد فصل الرأس عن الجسد . يسبق إزهاق الروح ، سمل العينين ، أو قطع اللسان ، أو بتر الذراعين ، وتعليقهما فى العنق .. والذنب الصغير عقوبته الحبس والقتل ، وكثيرًا ما أسرف فى التوسيط ، وقطع الأنوف والآذان والأطراف . وكان لا يتحرج من تفتيش بيوت كبار الموظفين والأعيان ، ويؤكد السير فى طريق العدل فى الأحكام ، وإقامة الشريعة والسنة ، وإبطال البدع والمنكرات ، ومنع الشهود الذين يقفون على أبواب المحاكم لشهادة الزور ..

كان يفضل بيته للفصل فى الخصومات والشكايات والمنازعات. ردهة واسعة ، تطل على الطريق بحيث يسهل الوصول إليها ، ولا تخدش حياء أهل البيت . وربما انتقل إلى مكان الحادث ، إذا احتاج

---

(١) جبل يشكر : يشرف على النيل ، وعليه جامع ابن طولون ، وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء ، ومكان مبارك . وقيل إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات .

الأمر لمعاينة من جانب القاضى ..

روى لى السكندرى - ونحن فى طريق العودة ـ ما أفزعنى . تذكرت القاضى التنوخى ، مبتدع أسطورة النبوة ، وأبوة عبدان السقاء لى . أسرفت فى السؤال ، فحدثنى : الرجل يشغل نفسه بالوساطة فى حاجات الناس ، لقاء معلوم يتقاضاه من كل الأطراف ، هو الذى يحدده ، فلا يعنيه إن ناءت به الكواهل ، أو عجز الناس عن دفعه . وهو يتصرف فى كل القضايا ، على اختلاف أنواعها : عقود الزواج والطلاق ، البيع والإجازة ، الوصية والوقف . وفتح أبوابه ، فقصده الناس لطلب الوظائف بمال . يضع كل واحد فى وظيفته بمقدار ما يعطى له من مال ، من لا يفتح ذهنه ، أو يتقاعس عن دفع المطلوب ، فإن عليه ألا يأمل فى شىء . عندما يشترى الموظف وظيفته ، فإنه لا بد أن يسترد ما دفعه بأسرع وقت ، وأيسر وسيلة ، فهو لا يأمن بقاءه فى الوظيفة ، أو أن المرتشى سيتقاضى من آخر ، أو أن المستقبل ربما يهبه وظيفة أكثر ملاءمة لمواهبه . يلغى وعده إذا دفع آخر أكثر من سابقيه . ربما تقلب على الوظيفة الواحدة بضعة رجال . بدا جمع الأموال همه وديدنه ، وشاغل حياته . يتاجر بالفتوى ، ويقبل الرشا ، ويتحايل على مصادرة الناس فى أموالهم ، ويصالح[1] على تركات الأغنياء . زاد ، فحاز لنفسه تركات العديد من الموتى ، وحرم منها وارثيها . وضم إلى إقطاعه وملكه الخاص أماكن موقوفة . إذا مات شخص ، بعث عماله إلى أهل الميت لاستلام حق الدولة فى تركته ، وهو حق يجب أن يزيد ـ فى مجموعه ـ عن كل ما يتقاضاه الورثة . وربما آلت التركة كلها ـ بحيل وأفانين ـ إلى الأعوان ، يستلبون أكثرها ، ويودعون بيت

(١) المصالحة هى أن يفرض على الوارثين أموال باهظة ، لتمكينهم من تركة مورثهم .

المال أقلها . قد يتهمون أهل الميت بإخفاء التركة ، وتبديدها . يسلطون عليهم من القسوة والعذاب ، ما يبلغ حد الشناعة ، كى يتنازلوا - فى النهاية - عن بعض ما يملكون ، باعتباره ملكًا للمتوفى . تعاظم جور أعوانه على الناس بالأذى ، فكرهته العامة ، وضاقت به الخاصة . أرهقوا الناس بالمغارم والجبايات . حتى الأراضى البور ، كان الأعوان يستخرجون من الناس ضرائب عليها . وكانوا يأخذون الكثير من المكوس ، فلا يصل إلى الدولة منها شىء ..

أما شهود القضاء - هؤلاء الذين أعلن بطلان شهاداتهم ـ فقد شدد عليهم ليشهدوا ـ زورا ـ فيما يريد أن يضمه لإقطاعه وأملاكه من حجج الأحباس[1] والتركات . ثم تحول عن وظيفته ، فصار جابيًا يجمع الأموال والمغارم من البلاد ، ويقبل ـ فى الوقت نفسه - ما يقدمه له الأهالى من هدايا ورشا . لا يحصل شيئا بنفسه ، فهو فى بيته بمصر الفسطاط ، أو ديوانه . إنما يوجه أعوانه وموظفيه إلى هذه البلدة أو تلك ، فيحصلون منها ما حدده . وربما أضافوا إلى ما سبق تحديده ، ليوسعوا على أنفسهم ..

نبهه متولى الخراج إلى تعارض نشاط أعوانه مع وظيفة معاونيه ، فاحتج بأن الأستاذ ائتمنه على أموال المسلمين ، فنشاطه لا يجاوز الميراث والوقف ، وما يتصل بالصلة بين الحياة والموت ..

خطر لى أن أسأل عبد الرحمن السكندرى : كيف حصل على وظيفته ..

أعفانى من السؤال ، لما حدثنى ، اليوم ، عن أستاذه النساخ الشيخ . استعان به فى عمله ، داخل قصر الأستاذ . فلما قضى الشيخ ، تثبت السكندرى فى وظيفته ..

(١) الأحباس : الأوقاف .

٥٥

أطلق الأستاذ ضحكة مجلجلة :

ـ أرأيتم ما قال واعظ مسجد عبد الله : ما أنجب من ولد حام ـ كما يرى ـ إلا ثلاثة : لقمان وبلال المؤذن وكافور !..

عرفت الحكاية من عبد الرحمن السكندرى :

خطب الواعظ فى المصلين ، فقال :

ـ انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى ، فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين : ابن بوية ببغداد ، وهو أشل .. وكافور عندنا بمصر ، وهو خصى ..

نقل البصاصون كلمات الرجل ـ بنصها ـ إلى الأستاذ . لم يثر ، ولا أظهر الغضب ، إنما أرسل إليه خلعًا ومائة دينار ، وقال : لم يقل هذا إلا لجفائى له ..

وحدث ما توقعه الأستاذ ، فبدل الواعظ كلماته ..

٥٦

أبا المسك هل فى الكاس فضل أناله
فإنى أغنى ، منذ حين ، وتشرب
إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية
فجودك يكسونى وشغلك يكسب

٥٧

الشائعة حملها لى صديق من الشام . حين أخبروه بأنى على قيد الحياة ، لم يصدق إلا أن يرانى بنفسه ..

صحبه خادم من قصر الأستاذ إلى بيتى . أكد المحيطون بسيف الدولة نبأ موتى . سألت إن كان الرجل صدق ما قيل ..

رسم صديقى على وجهه ابتسامة ، لا تهب إجابة محددة ..

٥٩

واقعة قديمة ، رواها لى اليوم عبد الرحمن السكندرى :

عرف الأستاذ أن عبد الله بن وليد يتصرف فى أموال كثيرة ، لا صاحب لها . أخبره بذلك عمر بن الحسن الهاشمى ، الذى تقلد القضاء بعد عزل ابن وليد ..

أمر الأستاذ ، فأودع الرجل سجن دمياط . ظل فيه ، وإن لم ينله تعذيب ، حتى أفلحت شفاعات وجوه الناس ، والهاشمى من بينهم . فأمر الأستاذ بالعفو عنه ، وإن ظلت نفسه متغيرة عليه . أذن له بالظفر بحياته ، فلم يسلمه إلى السياف ، لكنه أبعده عن وظيفته ، وألزمه قبره ، لا يبرحه ستة أشهر تالية ..

٦٠

قال لى ابن القاسم ، ونحن نغادر ـ هذا المساء ـ مجلس الأستاذ :

ـ قد طال وقوفك فى مجلس أبى المسك ![1]

لا يتحدث إلا عما يأمره الإخشيدى بدسه ..

قلت ..

يقل له الوقوف على الرءوس   وبذل المكرمات من النفوس

٦٢

قالوا هجرت إليه الغيث. قلت لهم   إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذى تهب الدولات راحته   ولا يمن على آثار موهوب[2]

---

(١) يشير إلى أنه كان لايجلس عند كافور ، بل ينشده وهو واقف .

(٢) هذان البيتان من قصيدة للمتنبى ، كتبها بعد أربعة أشهر من دخوله مصر . وكان الإخشيدى يحسن وفادته ، وإن لم يكل إليه أمراً . ومن الواضح أن أبا الطيب كان يستحث الإخشيدى على إنجاز ما وعده به .

٦٤

شهدت الاحتفال بوفاء النيل . عيد يركب فيه الأستاذ بعساكره . ينزل فى المراكب لتخليق مقياس النيل ، عند الخليج ..

خرج الأستاذ من قصره بالعسكر فى موكب عظيم ، تحوطه الفرحة والأبهة ، وقدامه وحوله أهل الدولة والوجهاء والأعيان وأرباب العمامة والسيف ، والناس قد ملأوا ما بين المقياس إلى ما قبل الفسطاط . لم يبق بيت بمصر الفسطاط إلا خرج لرؤية ذلك ، والمشاركة فيه بما وسعه . تعالت الألحان والأهازيج ، وأبدى الناس مظاهر البهجة ، حتى وصل مركب الأستاذ إلى المقياس ، ففتح الخليج بحضرته ، وعاد إلى قصره .

٦٥

ثار القاضى بدر بن هلال ، ومتولى الخراج أبو بكر محمد بن مقاتل ، فى مجلس الأستاذ ..

بدا عليه غضب . روى ما حدث ـ ذات يوم ـ أمامه ـ فى ولاية محمد بن طغج الإخشيد ـ بين القاضى الشافعى أبى بكر بن الحداد ، والقاضى المالكى أبى الذكر محمد ، والقاضى عبد الله بن وليد . تنازعوا فى مجلس الإخشيد ، وخرجوا عن حد الأدب . وقال الإخشيد ، عقب انصرافهم متأسفًا : يجرى هذا فى مجلسى !.. كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم !.

علا صوت الأستاذ :

ـ أما أنا ، فكدت أفصل رءوسهم عن أجسادهم بنفسى !..

٦٦ ـ ٦٨

ليست كل قصائدى مما يصح إلقاؤه أمام الأستاذ ، أو فى المناسبات . أحرص ـ بعد تدوين القصيدة ـ أن تظل فى أوراقها ، لا يطالعها أحد ، أو أقرأها على أحد . غاية ما أفعله أنى أكلف أحد الوراقين بنسخ القصيدة مرتين أو ثلاثًا . أبعث بها مع مسافر إلى حلب أو بغداد أو الكوفة . يودعها ـ مع غيرها ـ عند الأقارب والأصدقاء والخلان . إذا تنوعت أماكن إيداعها ، فهى لا تضيع . من يصادرها ـ أو يستولى عليها ـ فى بلد ، لن يتاح له الفعل نفسه فى بلد آخر ، مدينة أخرى ..

لاحظت أن عبد الرحمن السكندرى أسرف فى اقترابه منى ، يعجب بديوانى ، ويحفظه ، ويتمثل بأبياته ، يتحدث بما يمليه خاطره ، كأنه اطمأن إلى صداقتى . يلبى مطالبى الخاصة ، وما أحتاجه من الأسواق . عمله فى القصر الذى بناه الإخشيدى على النيل ، أتاح له الدخول والخروج إلى الأماكن المحظور دخولها ، فلا يشك فيه أحد . تصورته ـ فى حرصه الملح على ملازمتى ـ أحد بصاصى السيابى ، وإن حذرنى منه . أراهم ، وألتقى بهم ، فى البيوت والقصور والشوارع والأسواق . أهملت التحدث أو الإنصات إليه . نبهنى علمه الوافر إلى ما غاب عنى . روى لى أن عائلته تأخرت فى دخول الإسلام . مع ذلك ، فقد كان حسن الإيمان والسيرة ، وينأى بنفسه عن مواطن الشبهات ، فهو لا يكاد يغادر عمله أو بيته ، أو أنه فى الطريق إليهما ، ولا يعرف أماكن السمر واللهو ، ولا يتحدث إلا بما يوجبه مقتضى الأحوال ..

طلبت أن يدلنى على نساخ واضح الخط . لم أكن قد اطمأننت إليه تمامًا ، فطلبت مرافقته ..

أبطأت الخطوات فى سوق الوراقين . ناسخون ومجلدون اقتعدوا المصاطب ، وانشغلوا بزخرفة الكتب بخطوط منسوبة ، وزخارف ذهبية وفضية ..

غادر بى السوق إلى دروب . انتهينا إلى دكان صغير ، فى زقاق بالقرب من الجامع الكبير. امتلأ وجه الشيخ ـ لقدومنا ـ بابتسامة مرحبة:

ــ أهلا بشاعرنا ابن الحسين ..

أضاف لنظرتى الداهشة :

ــ من لا يعرف سيد شعراء العربية ؟..

بدا لى أفضل من المهنة التى يعمل بها ، وبدت العلاقة بينهما لا كالعلاقة بين نساخ وطالب علم ، أو بين تاجر ومشتر . ذكرنى الشيخ بقصائد لى ، أنشدتها فى الكوفة وحلب ودمشق وبغداد ، وغيرها من مدن وأقطار ، لم أتصور وصول أنبائها إلى الفسطاط ..

قبل أن أغادر الدكان ، وفى حوزتى ما نسخه الشيخ ، دس الشاب فى يده أوراقًا . قال بصوت غلبته ارتعاشة :

ــ أعود بعد يومين لتسلم نسخها !..

هذا الشاب ، عبد الرحمن السكندرى ، أثق أنه ليس من بصاصى السيابى ، لا لأنه حذرنى من الآذان المتصنتة ، والأعين المتلصصة ، والأذهان التى تسيء الفهم والتفسير . علمه وأسئلته وملاحظاته ، تبعد به عن عالم الريب والظنون ، تجعله صديقًا يسهل الارتكان إلى صداقته ..

حضر الأستاذ صلاة الجمعة فى مسجد بناحية سوق القناديل . أنشأه على نفقته ــ القاضى بدر بن هلال ..

بدا المسجد ــ من داخله وخارجه ــ جميلاً ، مزيناً بالمقرنصات والنقوش والزخارف الجميلة . منبره من أغلى أنواع الخشب .

وفرشت أرضه بسجاجيد أعجمية ، وزوده بمكتبة حافلة بكتب العلوم الشرعية ..

قال لى عبد الرحمن السكندرى بصوت كالهمس :

ــ يتصور القاضى بدر بن هلال أن بناء مسجد يكفل له مغفرة الله من اغتيال حقوق الناس ..

أضاف لتساؤلى الساكت :

ــ الكل يعلم أنه جمع أمواله بطريق الظلم والمصادرات !..

غمغمت بما ينبئ بتهيوءى للكلام . ثم فضلت الصمت ..

ما شأنى بذلك كله ؟!..

٧٠

قضى ـ منذ أيام ـ بعد مرض طويل ـ على بن صالح الروذبادى ، كاتب الأستاذ . فرح الناس لموته . قال لى عبد الرحمن السكندرى عن صيحات مهللة وزغاريد ، تناهت من ناحية الفسطاط . وقال السكندرى إن الرجل حسَّن للأستاذ أن يوفر من اعتمادات الرواتب بخفضها . سخط عليه الناس . فلما لحقه المرض ، تمنوا زواله . فلما مات ، أعلنوا فرحتهم .

استصفى المحتسب أمواله . فاجأ الجميع بثروته الهائلة . ذهل لها المحتسب ، وذهل لها الأستاذ نفسه ، حين علم بأمرها . وذهل لها أهل مصر عندما ذاع خبرها بينهم ..

قيل إنه ترك ثلاثة آلاف جرة مملوءة ذهبًا ، وعقودًا وأكوابًا وأطباقًا من الذهب ، وثيابًا وأمتعة وطرائف قيمتها ملايين الدينارات ، وأراض زراعية وعقارات فى مدن وقرى كثيرة ..

كنت فى مجلس الأستاذ ، صباح اليوم ، لما أصدر أمره بمصادرة تركة الرجل ، فلا يتبقى لورثته شيء ..

٧١

سألنى ابن القاسم ظهر اليوم ، وهو يرافقنى فى طريق العودة إلى البيت :

ـ على من تنبأت ؟..[١]

كان يثقل على أن أردعى المتنبى ، دهرًا ، إلى أن أنست بالتسمية .

قلت :

ـ على الشعراء[٢] .

قال :

ـ لكل نبى معجزته .. فما معجزتك ؟..

قلت :

ـ هذا البيت :

ومـن نكـد الدنيا على الحـر أن يـرى
عـدوًا له ما مـن صداقتـه بـد

٧٢

أقر كافور تولى عمر الهاشمى قضاء مصر (هل لذلك صلة بثورة القاضى ابن هلال ، ومتولى الخراج ابن مقاتل ؟) ..

---

(١) تختلف اجتهادات المؤرخين فى تسمية المتنبى : هل كانت لادعائه النبوة ، أو لسبب آخر ؟ . وعموماً ، فإن ادعاء المتنبى النبوة ، مشكوك فيه ، لأنه يرجع إلى ثلاث روايات شفاهية . فضلاً عن أن ديوان المتنبى لا يشير ـ على أى نحو ـ إلى دعوى النبوة ..

(١) تؤكد الروايات المختلفة أن أبا الطيب أفاد ـ إلى غير حد ـ من ذاكرة قوية ، وقدرة على الحفظ والاستيعاب ، وحرص على التعلم والتثقف . وقد انعكس ذلك كله فى قصائده ، فهو قد قرأ لفطاحل الشعراء منذ الأعشى وامرئ القيس ، إلى أبى تمام ، مروراً بدهبل وزهير والأسعر والأخطل والفرزدق وأبى نواس وبشار والبحترى ، وغيرهم إلى زمانه .

قيل إن الرجل قدم للأستاذ مبلغًا من المال ، حتى يقر ولايته قاضيًا بدلاً من أخيه محمد بن الحسن الهاشمى ..

ربما الشائعة كاذبة . ظنى أنها كذلك . الأموال الهائلة التى تنفق على القصور والمطابخ والحفلات والأعوان ، تنفى أن يكون الأستاذ ممن يقبلون الحصول على مبالغ ـ مهما عظمت ـ من رجال حكمه ..

٧٣ ـ ٧٤

أخلى الأستاذ مجلسه ـ هذا المساء ـ إلا من كبار معاونيه .

شنت الجماعات الوافدة[١] هجمة مفاجئة على قرية فى الحدود . باغتوا الحامية المصرية ، فقتلوا أفرادها ، ونهبوا البيوت والدور ، وسبوا النساء والأطفال ..

تلاغطت الأحاديث عن الجماعات الوافدة . تضايق الناس فى معاشهم ، وتنغص عليهم حياتهم بإغاراتها المتعددة . تروع الآمنين ، وتسلب الدور ، وتدمر المحاصيل ، وترتكب جرائم السلب والنهب والإيذاء ، وتوسع من دوائر نفوذها ..

ضاعف من كمد الناس وإشفاقهم وحسرتهم ، إحساسهم بالخضوع لهذه الجماعات التى أتت من مناطق بعيدة ، تنشر الدمار والموت الأسود ، وتبشر ـ عجبًا ـ[٢] بالمدنية والتقدم والعلم . غريبة عن البلاد وناسها ودينها ، إلا ما كان منها أسافل المجتمع إلى سنوات قريبة . كانوا رقيقًا أو كالرقيق ، وإن استطاعوا ـ فى غفلة

---

(١) تخلو كل المصادر التاريخية من ذكر الجماعات الوافدة ، وما سببته من مضايقات ، دفعت كافوراً إلى حربها ، والحد من شرورها ، ثم الدخول معها فى معاهدة صلح . ولعل تلك الأحداث من صنع خيال أبى الطيب ، أولعلها كانت أحداثاً هامشية مع بعض قبائل الرحل ، حسمها المتنبى على هذا النحو .

(٢) هكذا فى الأصل .

من الدهر ـ أن يستولوا على ما ليس لهم ..

٧٥

وقف ـــ فى موكب الأستاذ ـــ هذا الصباح ، ثلاثة رجال . يتراوحون بين الكهولة والشيخوخة . يرتدون زى العامة ..

قبل أن يدفعهم الجنود ، وصلت استغاثاتهم إلى آذاننا ـــ ونحن حول الأستاذ ـ بأن يكف أذى عماله عن الرعية ..

سرى الكدر فى وجه الأستاذ كبربشة العين . ثم تشاغل بالتحدث مع ابن الفرات ، فلم أتبين حقيقة ما ينتويه .

٧٧ ـ ٧٨

فاجأ الأستاذ أعوانه وزوار مجلسه : من له ظلامة أو خصومة ، فإن عليه أن يحضر بين يديه ، ضحى كل سبت . أمر ، فألصقت منشورات ـ تتضمن المعنى نفسه ـ على أبواب المساجد والدور والحوانيت ، وعلى الجدران والمقابر . نادى بذلك المنادون والمشاعلية فى الشوارع والأخطاط ..

تعددت أحكام عمر الهاشمى بإراقة الدماء لجرائم قتل واغتصاب وسلب أموال اليتامى والأقوات . استولى الفقر والحاجة والمسكنة على الناس ، وتفاقمت المظالم بمصادرة الأهالى ، وتتبع أرباب الأموال ، واستلاب ما بأيديهم من المال بالقوة ..

أبدى الأستاذ اهتمامًا ، لما روى له الشيخ سالم البرديسى ، إمام جامع ابن طولون ، بواعث فصله من وظيفته . حين فحش الأمر ، وساءت السيرة ، وكثر التجرؤ على الدماء ، وإتلاف الأموال ، سعى إلى القاضى فى بيته :

ـ يا سيدى القاضى .. مفروض أن هذه الأموال تنفق على

المساجد والأسبلة وأعمال الخير ..

قال الهاشمى :

ـ ومن أنباك بعدم إنفاقها فى هذا الأمر ؟..

قال البرديسى :

ـ أعوانك يودعونها الخزائن فى لحظة .. ويخلونها منها فى اللحظة التالية ..

هتف القاضى :

ـ تتهم أعوانى ؟..

قال البرديسى :

ـ هذا ما يحدث بالفعل ..

أطل من عينى القاضى شرر . قبل أن يواصل الشيخ حديثه ، أسكته الهاشمى بإشارة من يده ، وعزله ..

٨٠

كان موكب الأستاذ يخترق الشارع الرئيسى ، عندما تعالت صيحات من جانب الطريق : الله ينصر الوزير أبا اليمن قزمان !..

غاب الاسم عن الأستاذ فى المرة الأولى ، فأصاخ سمعه . لم يرضخ كافور لانفعاله . أسلم نفسه لسرحة . ثم همس لعماله باستجوابهم ، حتى يفصحوا عن الباعث ، المحرض ، لما حدث ...

قال لى عبد الرحمن السكندرى إن المتآمرين اعترفوا ـــ قبل أن ينالهم عقاب ـ أن القاضى الهاشمى هو الذى دفع لهم ، وحرضهم على ما قالوه ، ليوغر صدر الأستاذ على أبى اليمن ..

أنصت كافور إلى الحكاية ، حتى خاتمتها . ثم التفت إلى الهاشمى فى مجلسه :

ـ لماذا حرضت الناس على ما فعلوه ؟..

قال الهاشمى :

ـ ربما اصطنع الموقف واحد ممن نلته بعدالتكم .. فأراد الإساءة لى !..

عاد كافور إلى سرحته ، وظل صامتًا .

٨١ ـ ٨٣

دعانى أبو على صالح بن رشدين ، فزرته فى بيته بالكوم الأحمر ، عند فم الخليج من الناحية الغربية ..

لاحظت أن البيوت بلا نوافذ تطل على الطرق والشوارع . حرمات السكان هدف أساسى ، ينفذ الهواء والضوء من الأفنية التى تتوسط البيوت . المشربيات تغطى الفتحات والنوافذ . تحفظ حرمة أهل البيت من أنظار الغرباء . تأذن ـــ فى الوقت نفسه ـــ بمرور الهواء والضوء . حتى المداخل تبدو متعرجة ـ عمدًا بالطبع ـــ فيصعب على النظرات العابرة أن تحيط بما يجرى في صحن البيت ..

وجدت فى استقبالى مجموعة من المتأدبين . تلقونى ـ فى البداية ـ أحسن لقاء ، وأنزلونى أحسن منزل . التفوا حولى ، يسمعون ، ويسألون ، ويعيدون قراءة قصائدى . حتى تلك التى أسقطتها الذاكرة ..

جلسنا خلف مشربية فى مواجهة الاتجاه الشمالى . يهب من خصاصها الهواء الملطف من الأفنية المكشوفة فى وسطها . تصفى الهواء والأتربة ، وتكسر من حدة الضوء القوى ..

فاجأنى شيخ أطلق لحيته ، فلم يعن بتهذيبها :

ـ ماذا تقصد بهذه الكافوريات ؟..

ـ تعبير جديد !..

ـ ماذا تقصد بها ؟..

ـ هل ترى غير المدح ؟..

ـ إنما هى ـ إذا أمعنا النظر ـ ذم واضح ..

ـ كل الكلمات حمالة أوجه ..

ـ إلا كلماتك !..

أضاف فيما يشبه التحذير :

ـ إذا كان لؤلؤ قد أودعك السجن فى حمص ، فإن الأستاذ يفضل حسم القضايا بجز الرءوس ..

لو أنى هجوت المخصى[(١)] ربما بدت قصائدى أكثر تعبيرًا عن واقع الحال . الحنين إلى حلب ، والملل من أيامى ، وما أراه وأنصت إليه ، يكفل ـ ولو بالباطل ـ تسويد ديوان هجاء بكامله . مدح الأستاذ قضيتى : فلا شأن لى بما يشغل الناس فى حياتهم ، أو ما يشكون منه . أتيت إلى الفسطاط لوظيفة محددة ، وبوعد محدد . أمدح الأستاذ ، فيهبنى المقابل . ولاية صيدا ، أو سواها من الإقطاعيات[(٢)] أجاوز بها صفتى الحالية..[(٣)]

قال رجل ، يشى لباسه بغربته عن مصر :

ـ يا أبا الطيب .. ألا تدرى موقعك بين شعراء العربية ؟..

سقط كوب الليمون ـ بتلقائية ـ من يدى :

ـ لى نفس تعرف قيمتها جيدًا ..

قال الرجل :

ـ فما حاجتك إلى التكسب من قصائدك ؟..

كأنما الترحيب مقدمة لإهانتى . أمسكت نفسى عن الانفعال. ساعد

---

(١) المخصى : واحدة من التسميات التى كانت تطلق على كافور الإخشيدى .

(٢) هل كتب المتنبى هذه الأوراق ، بحيث تجد سبيلها إلى النشر يوماً .. أو أنه كتب ما كتب لمجرد التنفيس عما يشغله ، ويضيق به .. هذه الفقرة ترجح الرأى الثانى .

(٣) هكذا بياض فى الأصل .

على ذلك نظرة غضب ، أطلت من عينى صاحب البيت إلى ضيفه ..

علا صوت الرجل :

ـ يا أبا الطيب .. ما أراك فقيرًا فتظل مادحًا للسلاطين والأمراء ..

تذكرت معاذًا اللاذقى . قال لى قبل سنوات : والله إنك لشاب خطير ، تصلح لمنادمة ملك كبير ..

قلت :

ـ فهل أرسل قصائدى فى سابلة الشوارع ؟..

ـ غريب أمرك يا ابن الحسين .. تتنكر لماضيك كله ، وتسقط آراءك ، من أجل ولاية لن تنالها !..

ـ الشعر حرفتى لا السياسة !..

ـ إنما أنت مجرد مادح للسلطان !..

ـ تهمة لا تعيبنى !..

ثم وأنا أضغط على الكلمات :

ـ أنا لا أمدح إلا الملوك !..

ـ فأين الكبرياء الذى أدخلك السجن..(١)

خالط صوتى ضيق :

ـ هل أظل فى السجن لأرضيك ؟..

لاحظ ابن رشدين تهيوءى للقيام . رافق نظرته الغاضبة هتاف :

ـ كأنك أوكلت إلى نفسك إصلاح أمور الناس ..

أضاف ، وهو يهز كتفى الرجل ، كأنه يهم بضربه :

---

(١) المؤكد ان الثورة كانت بعض أخلاق المتنبى ، منذ ثورته على نظام الحكم فى الكوفة ، وسعيه الدائب إلى تغييره . وقد دفع من حريته زمناً فى السجن ، لقاء دفاعه عن مبادئه .

ـ اكتف بأن تصلح أمر نفسك !..

أذكر أنى ذهبت - فى صباى - إلى بغداد ، قادمًا من الكوفة . وكان معى خمسة دراهم . وأعجبتنى الفاكهة فى سوق بغداد ، واعتزمت أن أشتريها بما معى من دراهم ..

قلت للبائع ..

ـ بكم تبيع هذه البطيخات الخمس ؟..

قال البائع :

ـ اذهب .. فليس هذا من طعامك ..

فوت الإهانة ، وقلت :

ـ يا هذا .. دع ما يغيظ ، واقصد الثمن ..

قال :

ـ ثمنها عشرة دراهم ..

لقسوة عباراته ، لم أستطع مساومته . دفعت له ما كان بحوزتى من دراهم ، لكنه رفضها ..

وخرج من الخان ، تاجر شيخ ، فى طريقه إلى داره ..

قصده بائع الفاكهة ، ودعا له ، وقال :

ـ يا مولاى .. هذا بطيخ باكور .. بإجازتك أحمله إلى البيت !..

قال الشيخ :

ـ ويحك !.. بكم هذا ؟..

قال البائع :

ـ بخمسة دراهم ..

قال الشيخ :

ـ بل بدرهمين ..

وافق البائع . وأتبع موافقته بحمل البطيخات إلى بيت الشيخ ، وعاد إلى دكانه مسرورًا ..

قلت للرجل :

- يا هذا ؟.. ما رأيت أعجب من جهلك .. استمت على فى هذا البطيخ ، وفعلت فعلتك التى فعلت . وكنت قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم ، فبعته بدرهمين محمولاً ..

قال البائع :

- اسكت . هذا يملك مائة ألف دينار !..

علمت أن الناس لا يكرمون أحدًا ، إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار ..

أزمعت - يومها - أن أواصل السير فى طريق ، اسمع الناس فى نهايتها يقولون : إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار !..

٨٤

مررت بمحمد بن موسى ، الملقب بسيبويه الموسوس ، فى دكان حائك ، وأنا فى طريقى إلى بيتى ..

وقفت عليه :

- أيها الشيخ .. أحب أن أراك ..

قال :

- رعاك الله وحياك ..

قلت :

- بلغنى أنك أنكرت على قولى : عدوًا له ما من صداقته بد .. فما كان الصواب عندك ؟..

قال :

- إن الصداقة مشتقة من الصدق فى المودة .. ولا يسمى الصديق صديقًا ، وهو كاذب فى مودته .. فالصداقة إذن ضد العداوة ، ولا موقع لها فى هذا الموضع . ولو قلت : ما من مداراته أو مداجاته ، لأصبت . هذا رجل منا : يريد نفسه قال :

أتانى فى قميص اللاذ[1] يسعى عدو لى يلقب بالحبيب

قلت :

- أمع هذا غيره ؟..

قال :

- نعم :

وقد عبث الشراب بوجنتيه فصير خده كسنا اللهيب

فقلت له : متى استعملت هذا ؟ لقد أقبلت فى زى عجيب

فقال الشمس أهدت لى قميصًا مليح اللون من نسج المغيب

فثوبى والمدام ولون خدى قريب من قريب من قريب

واصلت سيرى مبتسمًا ، وسيبويه يصيح على :

- أبكم الرجل وجلال الله !..

ولم أبكم . لكننى أردت النأى عن مناقشة ، لا طائل من ورائها .

٨٥ - ٨٦

التقيت بأحمد البلبيسى ظهر أول أمس فى سوق القناديل[2] خلف الجامع العتيق . يسبقه حراس ، بأيديهم عصى ، يدفعون الناس عن طريقه ..

تنبه إلى وقوفى - وحارسى - فى جانب الشارع . ألقى تحية تقطر ودًا ، ثم واصل السير ..

بدت لى صورته غير مألوفة ، وغريبة ، عن رؤيتى له فى مجلس الأستاذ . كان الحياء توأمه ، فهو صامت أغلب الوقت ، لا يشارك فى الأحاديث ، ولا يدلى برأى ، إلا إذا دعاه الأستاذ ، فيبين عن سعة علم ، وسرعة بديهة ، وقوة حجة ..

---

(١) اللاذ : ثياب من حرير ، تنسج بالصين . تسميها العرب والعجم .

(٢) سوق القناديل : سوق كبيرة فى الفسطاط كانت تحتكر التجارة والمعاملات .

تقضت الأيام ـ منذ زيارته لى فى بيتى ـ دون أن نتحادث فى أمر ما . إنما يستمع كل منا إلى الآخر فى مجلس الأستاذ . تصورت نفسى صديقًا له ، خبيرًا به ، عارفًا لأسرار حياته .. لكن الصورة ما لبثت أن أبانت عن الوجه الآخر ..

شغلتنى الصورة الجديدة ، المفاجئة ، فهمنى السؤال عنه . أفزعنى ما سمعت ، فلم أصدقه فى البداية . أكدته روايات لا صلة بين أصحابها ، فأعدت النظر إلى المسألة برمتها . هل يخفى الحياء المفرط امرءًا آخر ، له السيرة نفسها التى يخشاها ، ويكرهها ، الناس ..

علمت أنه يتولى ، إلى جانب قيادة البصاصين ـ وظيفته غير المعلنة ـ أمر الخراج . فوضه ابن حنزابة لجميع وجوه الحسبة[1] والسواح والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين[2] وأنه صارم غاية الصرامة ، فى التعامل مع التجار والباعة ، فهو لا يستثنى أحدًا من قرار إبطال الخمور ـ مهما ارتفعت ، أو انخفضت ، مكانته ـ فلا يترك رجاله بيتا دون أن يكبسوه ، ما داموا قد علموا أن فيه خمرًا . بل إن قسوته تمتد فتشمل هؤلاء الذين لا يعنون بنظافة بيوتهم من خارجها ، أو كنس الطريق أمامها . وحين ضبط جزارًا يبيع لحمًا نتن الرائحة ، أمره أن يبتلع من اللحم نيئا . فلما جحظت عينا الجزار من كثرة ما أتخم ، سار عنه ، وإن خلف بعض أعوانه يباشرون إطعام الرجل من اللحم النيئ ، حتى يأتى عليه ..

---

(١) الحسبة : هى أمر بالمعروف ، إذا ظهر تركه ، ونهى عن المنكر ، إذا ظهر فعله . وقد شرع الله الحسبة على عباده . وهى تتفق مع القضاء فى أنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر فيما يتعلق بحقوق الأفراد من الغش فى الكيل والميزان والدس والتدليس ، وتقصر عنها فى أن والى الحسبة ليس له أن يفصل فى الدعاوى المتعلقة بالعقود والمعاملات ، إلا إذا أسند إليه السلطان ذلك ، فيجمع بين القضاء والحسبة . (٢) كل هذه مصادر لبيت المال .

من وظيفته ، أنه يملأ الأهراء[1] بالغلال ، ويطمئن إلى وصول المكوس[2] والديون إلى بيت المال ، ويعاين المكاييل والموازين ، ويأمر بإماطة الأذى عن الطريق ، وينبه أولى الأمر إلى الأبنية العامة الآيلة للسقوط ، ويأمر ، فتوقد القناديل فى سائر البلد على الحوانيت وأبواب الدور ونواصى الأخطاط . لا يمر فى الشارع حمل تبن ولا حمل حطب . لا يسوق أحد فرسًا بها ، ولا يمر بها سقاء إلا وراويته مغطاة . يجعل عدة من الخفراء ، يطوفون بالشوارع والأخطاط لحراسة البيوت والدكاكين وغيرها . يشرف على أرباب الصناعات من نجارين وحدادين ونساجين ووراقين ، وغيرهم ممن تتصل أعمالهم بالناس . حتى السقاءون ومعلمو الكتاتيب ، ينضوون تحت سلطته ، ويخضعون لتفتيشه . يسأل عن أسعار السلع ليتأكد من أنها مناسبة ، يسبقه فى طوافه بالأسواق موظف يحمل ميزانًا كبيرًا ، يتبعه الجلادون ، وبعض المعاونين . يعاين الموازين والمكاييل التى يستعملها التجار ، حتى يتأكد من صحتها ..

استخدم النواب فى مصر الفسطاط وباقى المدن ، يطوفون على أرباب الحرف والصناعات والتجارة والموقدين بيوتهم ليلاً ، ويختمون على قدور الهراسين ، وعلى اللحوم ، ويعاينون البضائع ، يتشممونها ، ويقلبونها ، ويتأملون جودتها ، ويتتبعون الطرقات ، ويمنعون من المضايقة فيها ، ويراعون ألا تحمل الراكب أكثر من وسق السلامة . وكذلك فى حمولات البهائم ، ويأمرون السقائين بتغطية الروايا ، والحمالين بارتداء السراويلات الساترة لعوراتهم وينذرون معلمى المكاتب ، بألا يضربوا الصبيان ضربًا قاسيًا ، ولا فى مقتل ، ويقفون على من يكون سيئ المعاملة ، فينهونه عن أفعاله ، وينظرون المكاييل والموازين .

---

(١) الأهراء : مخازن القمح . (٢) المكوس فى اللغة العربية : الجباية .

فإذا أسرف بائع في تطفيف الكيل ، ضربه النواب ، وعزروه ، وأشهروه على حمار وهو مكشوف الرأس ..

علمت أن بواعث الخير لم تكن هي التي أملت عليه ما فعله .

روى لي عبد الرحمن السكندري عن جرائم ارتكبها ، وأباطيل نسجها لنفسه ، وادعى أنها لصالح الجماعة . ساعده على خداع الناس ـ وخداعي ـ ما حرص عليه من رزانة ووقار ، فهو يحسن الإنصات ، ولا يتحدث إلا بما تمليه الضرورة ، ويحفظ الكثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، ويكثر من الصوم والصلاة ، ويعرض عن الهزل ، وإن لم تغادر البسمة شفتيه ، ويميل إلى التواضع في مجلسه ، حتى إنه كان يخفض الرأس في مواجهة محدثه ، دون اعتبار لارتفاع مكانة المتحدث ، أو انحطاطها ..

ألزم كل من يدخل عليه ، سواء أكان من الوجهاء ، أو من عامة الناس ، أن يحمل معه هدايا ، ذهب أو أموال أو جارية أو عبد . لا ينظر في دعواه إلا إذا سبقته الهدايا ..

سمى الرشوة حلوانًا ومكسًا ، فهو لا يكاد يولي أحدًا وظيفة ولا عملا إلا بمال ، حتى جمع أموالاً عظيمة ، ملأت خزائنه ، وفرض من الضرائب والمغارم والمكوس ما أثقل كاهل الأهلين . شملت الضرائب كل إنسان ، وكل شيء ، فلم يبق شيء دون ضريبة . وأوقع بالتجار من المغارم والمصادرات ، ما جعلهم يجأرون بالشكوى ، ويتمنون زوال أيامه .

تسلط على الناس بشراء ما يملكونه من محاصيل ومزروعات ، بالثمن الذي يحدده . ثم يبيعها إلى التجار بأضعاف ما دفعه ..

تخلص من خصومه ، أو كل من رفع صوتًا بالشكوى : بالقتل والسجن والتشريد والمصادرة ..

لم يعد يكتفي بأكل أموال الناس ، وإنما راح يأكل أموال الدولة أيضًا . قيل إنه استغل كرم الأستاذ ، فتسلط على بعض المساجد والمدارس والتكايا ، في بلبيس وحولها . نقل أحجارها ، وأنشأ بها وكالة هائلة تجاه ناحية سوق القناديل ، تستقبل الوافدين من خارج البلاد ، يقضون فيها أيام إقامتهم ، لقاء أجر معلوم ..

زاد من عدد الأعوان والموظفين ، حتى ضاقت بهم العسكر[١] صاروا ينزلون إلى الفسطاط ، يشوشرون ، ويسرفون في المضايقة والإيذاء ، والحصول على ما تبيعه الدكاكين ، دون أن يدفعوا مقابلاً لها . وامتدت أيديهم إلى ما بأيدي الناس في الشوارع والأخطاط ، وشلحوا ثيابهم ، وتناولوهم بالكلمات النابية والضرب ، وأسرفوا في لعب الصوالج[٢] واللهو ، بحيث خرجوا عن الحدود التي رسمها الشرع الشريف ، فاستحقوا لعنة الله ، وغضبه ، جزاء وفاقًا للشرور التي ارتكبوها ، والآثام التي وقعوا فيها ..

فرضوا ضرائب باهظة ، يجبونها تحت التهديد والوعيد ، وانتشرت عقوبة التشهير والمناداة والتجريس[٣] وتعرضت أرواح العباد وأموالهم للإزهاق والضياع والسلب . زادوا ، فأهملوا المعاملات الديوانية تمامًا ، وتجاوزوا على العورات ، وفضوا البكارى ، ولاطوا بالغلمان ، وقتلوا النساء أمام أزواجهن ..

ضج الناس ، وتعددت شكاياتهم . تصل الشكايات إلى أحمد البلبيسي . يلتقط اسم الشاكي ، وعنوانه ، ويأمر بإحراق الأوراق .

---

(١) الفسطاط والقطائع والعسكر ، كانت تشكل ـ في مجموعها ـ مصر الفسطاط .
(٢) الصوالج : لعبة البولو الحالية .
(٣) التجريس : هو وضع المتهم ، أو المحكوم عليه ، بالمقلوب على حمار معلق به جرس ، والطواف به في الشوارع .

فإذا أسـرف بائع فى تطفيف الكيـل ، ضربـه النواب ، وعـزروه ، وأشهروه على حمار وهو مكشوف الرأس ..

علمت أن بواعث الخير لم تكن هى التـى أملـت عليه مـا فعلـه . روى لـى عبـد الرحمـن السـكندرى عـن جرائـم ارتكبهـا ، وأبـاطيل نسجها لنفسه ، وادعى أنها لصالح الجماعـة . سـاعده علـى خـداع الناس ـ وخداعى ـ ما حرص عليه مـن رزانـة ووقـار ، فهـو يحسـن الإنصات ، ولا يتحدث إلا بما تمليه الضرورة ، ويحفـظ الكثير مـن آيـات القـرآن الكريـم والأحـاديث الشـريفة ، ويكـثر مـن الصـوم والصلاة ، ويعرض عن الهزل ، وإن لم تغادر البسمة شـفتيه ، ويميـل إلى التواضع فى مجلسه ، حتى إنه كان يخفـض الـرأس فـى مواجهـة محدثه ، دون اعتبار لارتفاع مكانة المتحدث ، أو انحطاطها ..

ألزم كل من يدخل عليه ، سواء أكان من الوجهاء ، أو مـن عامـة الناس ، أن يحمل معه هدايا ، ذهب أو أموال أو جاريـة أو عبـد . لا ينظر فى دعواه إلا إذا سبقته الهدايا ..

سمى الرشوة حلوانًا ومكسًا ، فهو لا يكاد يولى أحدًا وظيفـة ولا عملا إلا بمال ، حتى جمع أموالاً عظيمة ، مـلأت خزائنـه ، وفـرض من الضرائب والمغارم والمكوس ما أثقـل كـاهل الأهليـن . شـملت الضرائب كل إنسـان ، وكـل شـىء ، فلـم يبـق شـىء دون ضريبـة . وأوقـع بالتجـار مـن المغـارم والمصـادرات ، مـا جعلهـم يجـأرون بالشكوى ، ويتمنون زوال أيامه .

تسلط على الناس بشراء ما يملكونه مـن محـاصيل ومزروعـات ، بالثمن الذى يحدده . ثم يبيعها إلى التجار بأضعاف ما دفعه ..

تخلص من خصومه ، أو كل من رفـع صوتـًا بالشـكوى : بـالقتل والسجن والتشريد والمصادرة ..

لم يعد يكتفى بأكل أموال الناس ، وإنما راح يأكل أمـوال الدولـة أيضًا . قيل إنه استغل كرم الأستاذ ، فتسـلط علـى بعـض المسـاجد والمدارس والتكايا ، فى بلبيس وحولها . نقل أحجارها ، وأنشأ بهـا وكالة هائلة تجاه ناحية سوق القناديل ، تستقبل الوافدين مـن خـارج البلاد ، يقضون فيها أيام إقامتهم ، لقاء أجر معلوم ..

زاد من عدد الأعوان والموظفين ، حتى ضـاقت بهـم العسـكر[١] صاروا ينزلون إلى الفسطاط ، يشوشرون ، ويسـرفون فـى المضايقـة والإيذاء ، والحصول على ما تبيعه الدكاكين ، دون أن يدفعوا مقابلاً لها . وامتدت أيديهم إلى ما بأيدى الناس فى الشـوارع والأخطـاط ، وشلحوا ثيابهم ، وتناولوهم بالكلمات النابية والضرب ، وأسرفوا فى لعب الصوالج[٢] واللهو ، بحيث خرجوا عـن الحـدود التـى رسـمها الشرع الشريف ، فاستحقوا لعنة الله ، وغضبه ، جزاء وفاقًا للشـرور التى ارتكبوها ، والآثام التى وقعوا فيها ..

فرضـوا ضرائـب باهظـة ، يجبونهـا تحـت التهديـد والوعيـد ، وانتشرت عقوبـة التشـهير والمنـاداة والتجريس[٣] وتعرضـت أرواح العبـاد وأموالهـم للإزهـاق والضيـاع والسـلب . زادوا ، فـأهملوا المعـاملات الديوانيـة تمامًا ، وتجـاوزوا علـى العـورات ، وفضـوا البكارى ، ولاطوا بالغلمان ، وقتلوا النساء أمام أزواجهن ..

ضج الناس ، وتعددت شـكاياتهم . تصـل الشـكايات إلـى أحمـد البلبيسى . يلتقط اسم الشاكى ، وعنوانه ، ويـأمر بـإحراق الأوراق .

---

(١) الفسطاط والقطائع والعسكر ، كانت تشكل ـ فـى مجموعهـا ـ مصـر الفسطاط .

(٢) الصوالج : لعبة البولو الحالية .

(٣) التجريس : هـو وضـع المتهـم ، أو المحكوم عليه ، بـالمقلوب على حمار معلق به جرس ، والطواف به فى الشوارع .

يصل الجند إلى مكان الشاكى فى مساء اليوم نفسه ، أو صباح اليوم التالى . يحاسبونه على فعل غير الذى تناوله فى شكواه . يؤكدون التهمة بشهادة الشهود . ويتم العقاب بالإيذاء البدنى فى المكان ، أو يقتاد إلى السجن ..

قال السكندرى فى تأثر : إن الناس لم ينقموا على البلبيسى ، بقدر ما نقموا على الأستاذ ، لأنه قربه إليه ، وخلع عليه ، وسلطه على الناس ..

أردف فى تأثره : إن الأستاذ ولّى البلبيسى منصبه ، وهو يعرف حقيقة أمره . فتعليمه لم يجاوز فك الخط ، وحفظ القصار من سور القرآن ، والتقاط ما وسعه من مجالس العلماء ..

وقال السكندرى : يضاعف من ألم الناس ، وسخطهم ، إن البلبيسى ليس مجلوبًا . ولد فى قرية بالقرب من بلبيس ، فهو من عامة الناس . وإذا كان قد وصل إلى ما وصل إليه فى غفلة الزمن ، فإنهم لم يتوقعوا أن يكون سوط عذاب على أهله وقومه ..

وحين تجرأت أعداد من الناس ، ووقفت على أبواب الأستاذ ، تلتمس منه التدخل لدفع هذا البلاء ، ظلت الأحوال على ما هى عليه . بل إنه كلما استغاث أحد بالأستاذ ، نالوه بالعنت والإيذاء ، فلم يعد للناس ملجأ يفزعون إليه .

٩٠

سئلت ـ للمرة الألف ـ هذا الصباح ، فى سوق الوراقين :

ـ ما حقيقة لقب المتنبى ؟..

قلت :

ـ هو من النبوة ، أى المرتفع من الأرض .

٩١

قال لى ابن القاسم ، عصر اليوم :

ـ يا أبا محسد .. أين المرأة فى حياتك ؟..

قلت ، وأنا أوسط[1] الهواء بامتداد أصابعى حاسمًا :

ـ لا موضع لها !..

هتف فى دهشة :

ـ معقول ؟!..

قلت :

ـ أنت ذكرت السبب : إنى أب !..

قال فى دهشته :

ـ ألا يحتاج الآباء إلى النساء ؟..

قلت :

ـ معرفة المرأة تنتهى بوفاة الزوجة .. إنى أحترم ذكرى زوجى .

قال :

ـ ألست أنت القائل :

بأبى ، الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلاببا
المنهبات عقولنا وقلوبنا   وجناتهن الناهبات الناهبا
الناعمات القاتلات المحييات   المبديات من الدلال غرائبا

وفاجأنى بالسؤال :

ـ ألم تحب خولة بنت أبى الهيجاء أخت سيف الدولة ؟..

غالبت المفاجأة ، وارتباكى :

ـ لو أنى أحببتها ما توانيت عن إعلان ذلك ..

ـ راهب إذن ؟..

---

(١) التوسيط : تعبير يطلق على ضرب الجسد بالسيف ، فى منتصفه .

ـ لا رهبانية .. لكن مشغولياتى كبيرة ، فلا تتيح لى التفكير فى الصغائر ..

بدا على الرجل غضب واضح ، لم آبه له ، وانصرف .

٩٥

تمرست بالآفات حتى تركتها ... تقول أمات الدهر أم ذعر الذعر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها ... فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقًا وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك فى الدنيا دويًا كأنما ... تداول سمع المرء أنمله العشر

* * *

وأشنب معسول الثنيات واضح ... سترت فمى عنه ، فقبل مفرقى[1]
وأجياد غزلان كجيدك زرننى ... فلم أتبين عاطلاً من مطوق
وما كل من يهوى يعف إذا خلا ... عفافى ، ويرضى الحب والخيل تلتقى

٩٧

دخلت أحاديث الحرب ـ للمرة الأولى ـ مجلس الأستاذ ..

جاءت الأخبار بأن الجماعات الوافدة قد تحركت على البلاد من ناحية الحدود ، فوصلت إلى ما بعد العريش . كانت المناطق ـ فيما يلى غزة ـ فى يد العصابات الوافدة ، تقطع على المسافرين الطريق ، تأخذ أموال الناس ، تشن الغارات المفاجئة على مناطق الحدود . قتلت ـ هذه المرة ـ جماعة كثيرة من الجند والأهالى المصريين . بدا

(١) الأشنب : الأبيض الأسنان ـ الثنيات : الأسنان التى فى مقدم الفم ـ المفرق : موضع افتراق الشعر من الرأس ـ الأجياد : جمع جيد ـ العنق العاطل : الذى يخلو من الحلى ـ المطوق : الذى تطوق بالحلى ـ الحب : المحبوب .

كأنها تتهيأ لمواصلة السير داخل الأراضى المصرية ..

أمر الأستاذ ، فاتخذ قادة الجند حيطتهم ، بتشييد القلاع والحصون على الحدود ، وفى مدن الداخل ، وإقامة المراكز العسكرية ، وشراء السلاح والذخائر ، وتجنيد الأمراء . ولبست الجند آلة الحرب ، وأخذت خيول الأمراء وأهل الدولة وأولاد الناس . وعنى بتجهيز الشعير والزاد ..

٩٨

فكن فى اصطناعى محسنا كمجرب ... يبن لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت فى شك من السيف فابله ... فإما تنفيه ، وإما تعده
وما الصارم الهندى إلا كغيره ... إذا لم يفارقه النجاد وغمده[1]

١٠١ ـ ١٠٢

حصل فى هذا اليوم من نهب الأموال ، والسطو على البيوت والحوانيت ، واستباحة الأعراض ، وانتهاك الحرمات والاستهانة بأعراف الدين ، ما يطول شرحه ، كأن القارعة أقبلت ، فداخل الناس خوف عظيم ، وباتوا فى غاية الاضطراب ، وترقب الشر ..

قلت :

ـ لكل فعل فاعل ..

(١) ظن المتنبى أن الأخشيدى يشك فى كفاءته ، فهو يطلب إليه أن يجربه فى هذه القصيدة التى كتبها فى العام الأول لمقدمه .

قال عبد الرحمن السكندرى :

ـ هذه نيران دائمة .. مشعلها ووقودها أعوان البلبيسى ..

روى لى السكندرى ما لم يكن رواه عن أحمد البلبيسى . ارتكن إلى ثقة ابن حنزابة فيه ، مثلما ارتكن الأستاذ إلى ثقته فى وزيره . استكثر من الأعوان ، وأسند إليهم المناصب المهمة ، وكبريات الوظائف ، فتسلط على الأهالى بواسطتهم . كانوا أرذل الناس ، وأدناهم ، وأخسهم قدرًا ، وأشحهم نفسًا ، وأكثرهم إعراضًا عن الدين ، وإقبالاً على الدنيا . غلبت السفالة على أخلاقهم ، وارتفع ـ من بينهم ـ ستر الحياء والحشمة ، وجهروا بالسوء من القول ، وتفاخروا بالمعايب والأغلاط ، وكثر تسلطهم على أرباب الدولة ، يعبثون باسمهم ، ويبطشون بسلطانهم ، ويظلمون دون رادع ..

ضايقوا الناس فى معاشهم ، وحرموهم الأمن والطمأنينة ، وقطعوا الطريق على الأغنياء والعامة ، واستولوا على دوابهم وأمتعتهم ، وأطلقوا خيولهم فى الحقول ، فأكلت محاصيلها ، وخطفوا النساء والغلمان ، وباعوهم بعضهم لبعض ، أو لمن يشاء من الوجهاء والأعيان . وكانوا يهجمون على النساء فى الحمامات ، ويخطفون الأقمشة والبضائع من الأسواق ، ومن أيدى الناس ، وحتى من الفقراء والمتسولة ، فلا يدفعون أثمانها . من يمتنع ، فإنه يواجه الضرب ، وربما القتل ، ويدخلون البيوت ـ أياً كان أصحابها ـ فلا يغادرونها حتى يأخذوا ما يستطيعون أخذه من أموال ومتاع . من رفض أو أبدى المقاومة ، آذوه ، وألحقوا به ضررًا بليغًا ..

انتقل فسادهم إلى خارج مصر الفسطاط ، شنوا الغارات فى الرملة وبلبيس والفيوم . روعوا الآمنين ، وسطوا على دورهم ، واستلبوا

محاصيلهم ومتاعهم وما يملكون من كراع[1] .

بالاختصار ، فقد حصل للناس منهم غاية الأذى ، وعظيم البلاء ، حتى إنهم انتهزوا الفرص للنزول من العسكر والقطائع إلى الفسطاط ، يشترون فلا يدفعون ، وينهبون ، ويسرقون . لم يسلم من شرورهم حتى كبار أهل الدولة ..

سألت عبد الرحمن السكندرى :

ـ لماذا تسكتون عن مظالمه ؟..

قال :

ـ جعله ابن حنزابة موضع ثقته ..

قلت :

ـ أبلغوا الأستاذ بأفعاله ..

قال :

ـ أبلغناه ، فعاب علينا الحقد الذى يشغله هدم الناجحين !..

ذكر السكندرى ـ فيما ذكر أثناء حديثى الليلة معه ـ اسم كافور الخادم . لاحظ مفاجأتى ودهشتى ..

قال وهو يغالب ارتباكه :

ـ أنا لا أنعته .. لكن هذه بعض تسمياته ..

١٠٩ ـ ١١٠

تواترت الأنباء عن معارك فى الحدود بين الجند المصريين والجماعات الوافدة . نودى فى مصر ونواحيها بأن النفير عام فى سبيل الله تعالى ، ورسم بشد الخيول ، ولبس آلة الحرب ..

خرج الشبان والرجال إلى الميادين والشوارع والأخطاط ،

(١) الكراع : هى الدواب من مثل البقر والجاموس والخيل والحمير .

يتصايحون بالحرب . وقدم إلى مصر الفسطاط كثير من أهالى الإسكندرية والصحراء ومدن الصعيد إلى أسوان يطلبون المشاركة فى ردع الغزاة ..

نزل الأستاذ إلى الميدان الواسع أمام قصره . عرض الجند وهم لابسون آلة الحرب ، راكبون على خيولهم . خلع على القادة ، وتبادل كلمات مباسطة مع العساكر ..

أمر ، فشقت مواكب الجند طريقها ، بين ابتهالات الأهالى ، ودعواتهم بالنصر المؤزر ..

١١٨

وما أنا بالباغى على الحب رشوة   ضعيف هوى يبغى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلى   على أن رأيى فى هواك صواب
وأعلم قومًا خالفونى فشرقوا   وغرَّبت ، أنى قد ظفرت وخابوا
إذا نلت منك الود فالمال هين   وكل الذى فوق التراب تراب

١٢١

كان الليل فى أوله . نترقب هتاف الحاجب بمقدم أبى المسك . خاض الحضور فى حوارات جانبية ..

قال ابن حنزابة :

ـ يا أبا الطيب .. ماذا تعنى بقولك :

يترشفن من فمى رشفات   هن فيه أحلى من التوحيد ؟

قلت ضاحكا :

ـ لا أكثر من خيال شاعر !..

قال :

ـ أعنى الزندقة فى المعنى ؟..

قلت :

ـ أنت تحمل الأمور أكثر مما تحتمل ..

قال وهو يشيح بيده :

ـ بل هذا إفراط وتجاوز حد ..

أضاف فى تساؤل داهش :

ـ هل أعيتك المعانى ؟..

قال ابن القاسم فى نبرة وعظية :

ـ للدين فى حياة هذا الشعب قداسة، يرفض لأى كان أن ينال منها..

١٢٧ ـ ١٢٨

حقق جند الله ثأره ..

كانت ساعة ، اشتجرت فيها الرماح ، وصالت البطاريق ، وتطايرت القسى والنشاب ، وإن حسمت المعركة ـ فى صورتها النهائية ـ بفوز جند الأستاذ على الجماعات الوافدة . قتلوا أعدادًا كبيرة ، وأسروا أعدادًا أخرى ، وغنموا غنائم عظيمة من خيل وسلاح وأمتعة وغير ذلك ، وأفلحوا فى طرد العدو إلى خارج الحدود ..

أظهر الناس فرحًا زائدًا ، ودقت البشائر أيامًا متوالية ، ونودى بالزينة ، فنصبت القلاع ، وأغلقت الأسواق ، وزينت المتاجر ، وأشعلت الشموع ، ورفعت المصاحف على الرءوس ، ونشرت الأعلام ، ودقت الطبول ، وبالغ الناس فى الوقود ، وأنفقوا الأموال الكثيرة فى المآكل والمشارب والغناء واللهو ، وكثر اللعب ، وأخذت الجوارى[1] فى النيل زخرفها ، وقامت بألعاب مختلفة ، وتوالت الأفراح ، وحضر أنواع الملاهى للترفيه عن الناس بألعابهم..

---

(١) الجوارى : المراكب .

دخل الأستاذ إلى مصر الفسطاط فى موكب عظيم . معه ابن الفرات وسمول الإخشيدى ، وكبار أهل الدولة ، وأرباب العمامة والسيف والقلم زينت له القطائع والعسكر والفسطاط ، وكان له يوم مشهود لم يسمع مثله . ضج الناس بالدعاء والهتاف ، ونثروا الذهب والفضة ، وفرشت الشقق الحرير . زاد فى فرحة الناس أن هذه كانت أول هزيمة عرفت للجماعات الوافدة ، منذ استوطنت مناطق الحدود . طالما شنوا الهجمات المباغتة ، وخافوا شروط السلم ، ونقضوا الاتفاقات ، وسلبوا ، ودمروا ، وحرقوا ، واستلبوا الثروات ، واعتمدوا على أباطيل فى الاستيلاء على أراض ليست لهم ..

تواتر ورود المبشرين ، ومعهم الأسرى ورءوس القتلى . يطاف بهم فى شوارع الفسطاط . يقف الناس ــ أو يطلون من البيوت ــ لمشاهدتهم ، وقد تملكت الفرحة النفوس ..

١٣٦ ــ ١٣٨

عظم ابن الفرات ، وعلا محله ، وطار ذكره . كان الأستاذ لا يفارقه ليلاً ونهارًا ، إلا إذا لزم جناح الحريم ، فهو لا يصدر إلا عن رأيه ، ولا يخليه من حضور مجلسه ، ولا يتصرف فى الأمور إلا بعد مشورته فيما يريد . وكان يرد على معظم سائليه : اسألوا ابن الفرات!..

استوثق بينهما ود عميق ، كأن كليهما مكمل للآخر ، متمم لرئاسته ، الأستاذ فى الإمارة ، وابن الفرات فى الوزارة ..

آلت إلى ابن الفرات مقاليد أمور البلاد والعباد ، فلم يعد يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه . صار صاحب الحل والعقد ، واجتمعت فيه الكلمة ، حتى إنه كان ينفذ الأمور ــ فى معظم الأحيان ــ من غير مشورة الأستاذ . يجلس فى القصر ، يأمر وينهى

وينظر فى الأحوال ، ويرتب العمال ، ولا يطلق شىء إلا بتوقيعه ، ولا ينفذ إلا بما يأمر به ، ويقرره ، ويجتمع ــ كل ليلة ــ مع كبار موظفيه ، ومن يثق فيهم للنظر فى أحوال الناس ..

ابن الفرات دارس ، محب للعلم . أتابع حواراته فى مجلس الأستاذ ، فلا أمنع نفسى ــ ولو بينى وبينها ــ من الإعجاب به ، لكنه ــ كما تيقنت ــ يحرص على اقتناء الأملاك والضياع والمسقفات والمعاصر والشون والمخازن والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوارى وغير ذلك . يحرص كذلك على التفرد ، لا يحتمل المنافس . فإذا لمحه ، سعى إلى التخلص منه بالقتل ، أو بالوشاية عند الأستاذ ، إن بدا خصمه صعب الإزاحة ..

أعجب ما سمعته عنه ، أنه كان يهوى النظر إلى الحيات والثعابين وغيرها من الحشرات الزاحفة . جعل لها فى داره قاعة ، يعنى بها ، ويطعمها ، فراش من الحواة ، والعديد من الخدم ..

كان الحواة وصيادو الأفاعى يعرفون الطريق إلى داره ، يعرضون عليه أنواعها الغريبة ، وأجناسها التى بلا عدد ، فيختار منها ما يستهويه منها ، ويجزل لأصحابها العطاء ..

بنى أعوانه على حبه لتربية الزواحف ، قصصًا وحكايات صدقوها لكثرة ما لاكتها ألسنتهم ، ونسبوا إليه السحر والطلسمات ، يخيفون بذلك من يفكر فى معاداته ، أو السعى ضده ، أو الوشاية به لدى الأستاذ ..

وقال لى السكندرى ــ يومًا ــ وهو يحدثنى فى أفعال ابن حنزابة:

ــ يبدو أن معاشرته للثعابين أصابته بأخلاقها !..

زادت النفقات فى الحرب . استأذن ابن حنزابة من الأستاذ أن يزيد الضرائب على مبيعات الناس ، وأسواقهم . أرجعت إلى تحامل السكندرى تأكيده أن ابن حنزابة قاسم جامعى الضرائب ما حصلوا عليه.

١٤١

قال لى ابن القاسم :

ـ كيف تصدر قصائدك ؟..

قلت :

ـ تصدر عن فنى ..

ـ وإلى من تتجه بها ؟..

ـ حيث تختار مشيئتى ..

وهو يلون صوته :

ـ ألم تراودك مشيئتك فى اختيار الوزير ابن الفرات ؟..

كتمت دهشتى :

ـ ماذا تعنى ؟..

ـ إنـه مـن النفـوذ كمـا تـرى .. فلمـاذا لا تخطـب وده بـإحدى قصائدك ؟

كيف أمتدح وزيرًا ـ ولو كـان ابـن حنزابـة ـــ وأنـا أعـد نفسـى للولاية ؟!..

علا صوت الدهشة :

ـ أنا أمدح ابن الفرات ؟!..[1]

قال :

ـ أعرف أنك مدحت من لا يرقون إلى مكانته !..

---

(١) يقال إن المتنبى نظم فى ابن حنزابة قصيدته التى مطلعها :

بـاد هـواك صـبرت أم لم تصـبرا وبكاك إن لم يجـرد معـك أو جرى

لكن الرجل لم يمنح أبا الطيب مـا كـان ينتظره منه ، فلم ينشده إياها ، وأنشدها فيما بعد ، فى مجلس ابن العميد ، وتلقى مقابلاً لها ثلاثة آلاف دينار.

غالبت التوجس :

ـ هل كلفك بما قلت ؟..

قال فى ود :

ـ إنما أردت توثيق حبل الود بينك وبينه ..

قلت :

ـ فإذا لم أمدحه ؟..

وهو يرفع راحتيه :

ـ هذا شأنك .. ولا تضع كلماتى فى غير إطارها !..

١٤٣

هل أصبحت القضية ، أنى لم أمدح ابن حنزابة ؟!..

١٤٦ ـ ١٤٧

تنقلت عينا مسعـــود بين الباب ومجلسى . الليل فى منتصفه ، أو بعده بقليل . ربما أطلت السهر للقراءة أو الكتابة ، أو لمغالبة الأرق. يغلق الباب الخارجى والمشربيات ، عقب صلاة العشاء ، فلا أنتظـر زوارًا . توالت الطرقـات ، فـأطلت مـن عينـى مسعـود حـيرة . ألـف ترددى فـى الموافقـة علـى فتـح البـاب للطـارق ، أعـانى الفضـول والتلصص ونظرات الشك والأسئلة التى لا تنتهـى . أبـانت انفراجـة الباب عن وجه لم أشاهد صاحبه من قبـل . حتـى الـزى يخـالف مـا اعتاد ارتداءه أبناء مصر ، لعله لأبناء الصحراء أو الساحل ، أو منـاطق بعيدة عن المدن . دفع بأوراق ، وسلم ، ومضى ..

همس مسعود فى دهشة :

ـ من ؟!.. فاتك مولى الإخشيد ؟[1]

ـ هو ما ذكرت !..

ـ المجنون ؟..

ـ هل هو كذلك ؟..

ـ هذه تسميته فى الناس ..

ـ لا تكن كببغاء ..

قاوم تردده :

ـ ماذا يطلب ؟..

ـ لقائى !..

أنساه خوفه التأدب :

ـ ربما أراد ابن حنزابة توريطنا !..

ـ لم أعد بشىء . سلم الرجل ما بيده ، ومضى .

١٤٩

عرض قائد الجند على الأستاذ أوراقًا ، بها عشرة أبيات ، قالوا إنهم عثروا عليها فى دكان بسوق الوراقين ..

أعطيت انتباهى ، وتذكرت عبد الرحمن السكندرى : هل يكون هو كاتب الأبيات ؟..

قرأ قائد الجند ما فى الورقة . أبيات ناقصة ، وأقرب إلى السذاجة ، وإن بدت فى غاية القسوة . تنعت الأستاذ بالأسود ، والمخصى ، والخادم ، والمجنون ..

سرت فى وجه كافور زرقة ، فصار مخيفًا . أيقنت بالعقاب الذى

(١) بعد وفاة الإخشيد ، آلت الأمور إلى كافور . وحاول فاتك أن ينازعه الملك والوصاية على ابن الحاكم الراحل . ثم قنع بالحياة فى إقطاعية له بالفيوم .

سيحل بالسكندرى لو أنه كتب هذه الأبيات . استعاد الاسم من قائد الجند ..

ارتاحت نفسى لذكر الاسم الأول : بدر ، أو شمس . لم يكن هو عبد الرحمن السكندرى ..

أهملت سماع بقية الاسم ، وتنهدت مرتاحًا ..

١٥١

قال لى شاب ملتح ، التقيت به ـ للمرة الأولى هذا المساء ـ بين صلاتى المغرب والعشاء فى جامع ابن طولون :

ـ حتى تدرك ما نعانيه ، فلا بد أن تحس ـ مثلنا ـ أن مصر هى وطنك !..

تمنيت لو أنى استغنيت عن الحارسين ، اللذين يرافقاننى أينما ذهبت ، كأنهما التأكيد على السجن الذى أحيا داخله . لا أستطيع أن أخلو بأحد ، ولا بنفسى . يحرصان على السماع أكثر من حرصهما على الإمساك بسلاحيهما ..

١٥٣ ـ ١٥٥

مثل غلبة النهار ـ أو الليل ـ دون أن يدرى المرء متى ولا كيف حدث ذلك ، تبين لى الحياة فى مصر الفسطاط عن أسرارها : الأستاذ هو الزعيم ، والقائد ، والمعلم . يحرص الجميع على إعلان ذلك ، وتأكيده فى خطبهم وتصريحاتهم وأحاديثهم المعلنة . حتى ابن حنزابة الذى طالت قامته ـ أحيانًا ـ قامة الأستاذ . كان يحرص على وضع الهالة المتألقة فوق رأس أبى المسك . كل الإنجازات والتشريعات والقرارات ، ما صغر منها وما كبر ، ما يتصل بالسياسة العامة والحياة اليومية للمواطنين ، إنما جرت بتوجيهات الأستاذ ،

الزعيم والقائد والمعلم ، نذر نفسه لأبناء الوطن ، يعنى بالتفصيلات الدقيقة فى حياتهم ، يتلقى الأخبار والتقارير عما يجرى فى المؤسسات والأسواق ، ينقلها إليه الأعوان والبصاصون ، يضعون الصورة كاملة أمامه يومًا بيوم ، فلا تفوته شاردة ولا واردة . يأخذ قراره فى ضوء مصالح الأهالى وذوى المصالح ، لا يرضخ لوشاية أو تحريض أو ضغط من أى نوع . القرار قراره ، يأخذه بكامل الوعى ، وبضمير لا يعتوره قلق . المشورة لمجرد الاستنارة والاستفادة من تعدد الآراء ، يستعيدها ، ويقلبها ، ويتوصل ـ ختامًا ـ إلى الرأى الذى يميل إليه . يأمر بصياغته فى مرسوم يمهره بتوقيعه ، أو بختمه ، بنفس راضية ..

زاد ابن الفرات وأعوانه ، فنسبوا إلى الأستاذ ما لم يكن ـ بالتأكيد ـ يعلم به . حتى عمليات الإعدام والاعتقال والمصادرة والتعذيب ، تنسب إلى الأستاذ ، وتمهر بتوقيعه أو ختمه . كيف وافق عليها ؟ وهل وصلت إليه الوقائع كاملة ؟ أو أنه جرى عليها تحريف ، إضافة وحذف وزيف ، غير ملامح الصورة ، نقص منها ، أو أضاف إليها ؟.. اقترابى من مجلس الأستاذ ، ومن معاونيه ، أتاح لى التعرف إلى الصورة على حقيقتها ، دون زواق أو تهاويل ..

خطب المشايخ فى المساجد بأن المخصى هو ظل الله على الأرض . وضع الله فى يده مفاتيح خزائنه فيها ، إن شاء فتحها ، وإن شاء ظلت مغلقة ..

مصر الفسطاط ليست مدينة الأستاذ ، ولا ابن الفرات والأمراء والوزراء والأعوان ، ولا مدينة المشايخ . إنها مدينة ناسها ، وإن اختفى ذلك فى خضم الصراعات والدسائس والاغتيالات التى كانت صورة الحياة فى الطبقة الحاكمة كلها ..

الشوارع عامرة بالحوانيت ، والحوانيت غاصة بأنواع المآكل

والمشارب ، والناس ـ فى الشوارع والأخطاط والأزقة والميادين والمتاجر والبيوت ـ كأنه لا يعنيهم شىء ، لا تستوقفهم الأحداث التى تمور فى بلادهم ، لا شأن لها بهم ، ولا شأن لهم بها . انصرفوا إلى اهتبال فرص التمتع باللذائذ ، وأسلموا قيادهم لسواهم ، يخطط ويدبر ويحمى الثغور ويرد الأعداء ، وما عليهم إلا أن يحظوا بما وفرته لهم الدولة من أسباب الأمن والأمان . فإذا دعاهم أولو الأمر لإظهار الفرحة ـ فى مناسبة ما ـ بالغوا فى إظهار الزينة ، ونصب القلاع ، وإيقاد الشموع والقناديل ..

أما إذا زاد أعوان الأستاذ من عنتهم ومظالمهم ، فإن المصريين يؤثرون الصمت . لا تبين الوجوه عما تضطرم به النفوس . ربما همسوا بالنكتة ، أو لمحوا بالكناية والتورية ، لكنهم يرفضون المعاداة الصريحة ، المعلنة ..

ذلك ما كنت أتوهمه فى البداية . ثم توضح لى ـ بالمخالطة والمعاشرة والملاحظة عن قرب ـ أن الفسطاط لا تهب الغرباء أسرارها بسهولة . الواجهة الصامتة اللاهية ، تخفى باطنًا صاخبًا موارًا . تلاقت الهمسات ، التعليقات العفوية ، الملاحظات العابرة ، المنشورات التى تدس تحت الأبواب ، المتاجر التى تغلق بلا سبب ، البيوت التى تدهمها الشرطة فى أوقات شتى ، أبانت عن الحقيقة التى لا تقبل الشك أو التأويل . فيما يجرى ويحدث ، فإن الإخشيدى يشارك بالصمت ، وأعوانه يشاركون بالمظالم والمؤامرات والأفعال الشنيعة . يهمسون فى أذنه ، فيحسن الإنصات ، يرفعون إليه التقارير الكاذبة فيصدقها ، يزينون له الأمور فيتوهم أنه يمشى فى الطريق الصواب ..

زادت المنشورات التى طالما دست تحت باب بيتى ، تنبهنى إلى

ما يجرى ويدور ، تطالبنى - بحق اقترابى من كافور - أن أنبهه ، وأشير عليه ، بإهمال الهمسات المغرضة ، رسم الوسائل التى تعين الأهالى على قسوة أيامهم ، محاسبة الظالم والمخطئ والمسيئ ..

قرارى الذى لم أتحول عنه ، أنى ما جئت إلى مصر إلا لمدح كافور ، والعودة بهدايا وأموال ، وصك تنصيبى على ولاية صيدا . أجلس إلى علماء دين وأدباء ومتعلمين ، يكتفون بالتلميح إلى الظروف الصعبة ، أجول فى الأسواق ، أطالع وجوه الناس ، أتعرف فى القصائد والكتابات النثرية إلى ما بين السطور ، أجالس النساخين ، يحدثوننى عما خافوا نسخه . أعرف البصاصين والأرصاد والجواسيس فى الشوارع والأسواق وحنايا الأزقة . أميزهم — حالاً - مهما أجادوا التنكر ، واصطناع مظاهر الناس العاديين . أكتفى — فى كل شيء - بالمشاهدة والإنصات . المتنبى صفة كاذبة ، ضاع من عمرى لقاءها عامان فى السجن ، فهل أضيع بقية عمرى فى قضايا لا تهمنى ؟. من يرفض ، فإن عليه أن يعلن رفضه بالطريقة التى تحلو له ، بالوسيلة التى يستطيعها ، لا شأن للآخرين برفضه وفعله .

١٥٧

أرى لى بقربى منك عيناً قريرة وإن كان قرباً بالبعاد يشاب
وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب
وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

١٥٨

قال لى عبد الرحمن السكندرى :

- لو أنك تابعت القصة من بداياتها ، ربما تبينت ارتباطها الوثيق بما جرى وكان . أبو المسك لم يخضع الأمور فى يوم وليلة . كان معلم ابن الإخشيد ، فوصيه . لم يرد لهذه الوصاية إلا حين اطمأن

أولو الشأن لذلك .. ثم رافق الأيام في تواليها ، حتى أصبح له الأمر كله ، كمن سار إلى هدفه عبر مسالك غير مطروقة ، فتجنب الرفض أو النكير أو الثورة ، مما كان لا بد أن يلتقى به لو أنه سار إلى هدفه فى العلن ، وأمام أعين الناس .. لقب الأستاذ لا يعنى التفاخر ولا التواضع . إنما هو حيلة ، حتى لا يتهمه الناس باغتصاب لقب السلطان ، أو الأمير ، بعد أن اغتصب كرسى الحكم لنفسه . وكان وصول تقليد من الخليفة إليه أمرًا غير مؤكد ..

١٦١

هل غادرت الشام ، وقطعت الفيافي والقفار ، لأمدح الأسود[١] ؟!

١٦٩

تكررت رسائل أبى شجاع فاتك الرومى[٢] . أرفض لقاءه ، كى لا أقع فى شباك الخديعة . عانيت أحابيل الجواسيس والدساسين وذوى الأغراض الدنيئة . لم أعد أثق فى إنسان ، ولاتصرف مهما تلفع بالبراءة . أضاف إلى ترددى ما علمته من اندفاعه وتهوره ، لا يدبر قدمه - قبل الخطو - موضعها ، يسبق فعله عقله وتدبيره ...[٣] لما اتخذت قرارى - بتوالى الرسائل — ظل القرار مؤجلاً . خشيتى من بصاصى المخصى ، كأنها النيران التى لا سبيل إلى اقتحامها ، الطريق التى ينبغى ألا ينظر المرء فيها وراءه ، الغرفة

---

(١) الأسود : من التسميات التى كانت تطلق على كافور الإخشيدى .

(٢) أبو شجاع فاتك الرومى : مملوك رومى الأصل . كان رفيق كافور فى خدمة الإخشيد . فلما مات مخدومهما ، وتقرر كافور فى خدمة ابن الأخشيد ، رفض فاتك الإقامة فى مصر ، حتى لا يكون كافور أعلى منه مرتبة ، فانتقل إلى الفيوم . التى كانت إقطاعًا له ، واتخذها مسكنًا .

(٣) بقية الكلمات مطموسة .

الواحدة والأربعون ، المغلقة ..

١٧٢

دعا الأستاذ ، فأدخل خمسة من الفقهاء فى الأصفاد ، وألقوا بين يديه. أمر الأستاذ كبيرهم ـ شيخ فى حوالى السبعين ـ بالتحدث عما سأله عنه، وصدع بالإنكار عليه ، وأنه غير أهل للقيام بأمر الرعية ، وعدد له ما يقوم به أتباعه من أعمال السلب والنهب والظلم للمسلمين ..

أنصت الأستاذ فى هدوء ، وإن تسلل إلى ملامح وجهه غضب ، وقال فى صوت خفيض :

ـ هل هذا ما تقولونه لأهل البلاد ؟..

قال الشيخ :

ـ بل هذا ما سمعناه .. ونحن نعيده على مسمعكم ..

أمر الأستاذ ، فسيروا بالأصفاد ، إلى حيث يجرى التحقيق معهم ، والتيقن إذا كان لهم أعوان بين أهل الدولة ، أو أن الكلمات واجهة لأفعال تدبر فى الخفاء ..

فرد ابن القاسم أوراق قصيدة ، ليلقيها بين يدى الأستاذ . سحب أبو المسك ذيل ردائه ، ومضى إلى داخل القصر ، فألغى المجلس هذه الليلة ..

١٧٥

ألفت استقبال البوابين وأصحاب الأخبار . يرجفون بأن الإخشيدى ولانى هذا الإقليم أو ذاك من أقاليم الصعيد . لم أعد أثق بأحاديث عن وقائع مختلقة ، وسراب فى صحراء مجدبة ، وأكاذيب أوعز بها الأسود ، فرددتها الألسنة ..

قال لى ابن القاسم ، ونحن نغادر الجامع العتيق ، عقب صلاة الجمعة:

ـ سألت الأستاذ : لماذا لم تول أبا الطيب ولاية ؟..

قلت ، لمجرد المسايرة فى الحديث :

ـ وبماذا أجابك ؟..

ـ قال : إنه وهو فقير معدم قد ادعى النبوة بعد النبى .. فكيف به بعد أن يلى ، ويصبح له أتباع وأنصار ؟!..

أردف فى ابتسامة عابثة :

ـ إنه لا يأمن أن تستقل بولايتك ، أو أنك ترثه فى مصر كلها بعد مماته !..

هل خلت مصر من الرجال ، حتى يخلص ملكها لهذا الخصى ؟!..

١٨٥ ـ ١٨٦

أيقظنى الخدم فى غير الموعد الذى ألفت الاستيقاظ فيه . كانوا قد فتحوا الباب للشيخ عبد القوى السروجى(١) وأجلسوه فى غرفة جانبية . جهزت نفسى فى دقائق . خاطب تساؤلى الصامت :

ـ مررت بجوار بيتكم ، فصعدت لأسلم ..

ناديت على الخدم ، فأتوا بالإفطار والمشروبات . رافق جلسته حديث ، عن سوء الأحوال ودسائس أهل الدولة ، وضيق الأهالى .

عزفت عن المشاركة والتعقيب ، أو حتى هز الرأس . كنت أعلم عن هؤلاء الذين يشكون جور الحاكم وعسفه ، لينقلوا عن الذى أنصت ، ما قالوه هم . دانت أمور البلاد للبصاصين ، يرون ما يشغلهم رؤيته ، ويغضون الأبصار عما يريدون تفويته وعدم إذاعته . يبلغون الأسود بالأحوال على نحو غير دقيق ، يؤكدون تبليغاتهم

---

(١) لم يرد اسم الشيخ عبد القوى السروجى فى كل المراجع التاريخية ، أو تلك التى تناولت سيرة المتنبى . ولعله من الشخصيات التى أهملتها الأقلام ، لأنها ـ فى تقديرهم ـ كانت غير ذات أثر حقيقى .

بتقارير الشرطة والبصاصين ، يعطى الرجل توجيهاته فى ضوء ما عرض عليه ، ينفذون الأقل منها على النحو الصحيح ، يهملون ما ليس فى صالح أهوائهم . فى الأغلب ، فإنهم يسيئون التبليغ والفهم والتنفيذ . يصطنعون الهجوم ــ أحيانا ــ ضد المخصى ، يسودون به الصفحات ، ينسبونه إلى من شغلتهم قضايا أيامهم ، لا تعنيهم ولاية ولا وزارة ، يواجهون الموت لقاء أفعال دبرها غيرهم . أتذكر منافسى عند التنوخيين[1] . صنعهم هجاء الحسين ابن إسحاق التنوخى ، أضافوه إلى غربتى..[2] .

بدوا كعصابة جعلت همها تسويد حياة الناس ، وتبغيضهم فى أيامهم ، وتبغيضى فى أيامى أنا أيضًا . استأثروا لأنفسهم بحكم البلاد . كافور واجهة تخفى المئات من الحكام الحقيقيين . تمكنوا من أرقى الوظائف . أبناء البلاد مقيدون فى تبعية الأرض . لا شأن لهم بما يجرى . يدفعون المكوس والضرائب ، يخرجون للمواكب ، يشهدون حمامات الدم ، تنتقل من القصور إلى الشوارع . يكتفون بالفرجة ، أو يلوذون بالفرار ..

كنت أفر ــ أحيانًا ــ إلى الصحراء . أعايش البدو والأعراب ، تستهوينى الفطرة والصفاء ، والبعد عن كل ما يشين ..

توقيًا للمجهول ، أمر المخصى بمنع الركوب بالسلاح ، مهما بلغت مكانة الراكب . شدد على مراقبة صناع الأسلحة وتجارها . هدد من يشترى سلاحًا دون أن يكون له به حاجة ، بالشنق . بالغ فى التحرز على نفسه ، فصار يأخذ بالظنة ، ويعاقب بالشبهة ، ويصدق كل وشاية، ولا يثق

---

(١) التنوخيون : اسم لعدة قبائل ، اجتمعوا قديماً بالبحرين ، وتحالفوا على التآزر والتناصر ، وأقاموا هناك ، فسموا تنوخاً . والتنوخ : الإقامة.

(٢) هكذا بياض فى الأصل .

بأى أحد مهما كان قريباً منه ، ومنع المشاهدين لموكبه عند ركوبه إلى المناطق المختلفة ، من الجلوس فى الطرقات ، وألزم الناس بإغلاق طاقات البيوت عند مروره . وكان يخلو إلى نفسه أيامًا كاملة فى البستان الكافورى ، المطل على الخليج . ثم لم يعد يبيت ليلتين فى مكان واحد ، وربما هجر مخدعه الوثير إلى خيمة أحد الخدم[1] ..

١٨٨

دعانى عبد الرحمن السكندرى إلى زيارة منطقة الجيزة والأهرام. قال:

ــ أنت لم تر قبور ملوك القبط وأكابرهم !..

اعتذرت ، لا لمشغولية ، فقد أصبحت الأيام مللاً متصلاً ، إنما لأنى كنت أتعجل اليوم الذى يأذن لى فيه المخصى بالرحيل . ذوت الأمانى ، فلم يعد يشغلنى إلا العودة من حيث أتيت ، الفرار من السجن الذى أودعت فيه نفسى ..

حلب !.. أحن إليها ، وإلى سيف الدولة ، الحركة والحياة والحرب والتغنى بالسيوف والرماح والقنا والنصال والدروق والحجوف والدروع والكراغندرات والجواشن والزرديات والخود والقنطاريات والأسنة والقسى[2] .

ما جدوى الولاية فى ظل المخصى ؟!..

---

(١) لعل سخط المتنبى على الإخشيدى هو الذى أملى عليه هذه الكلمات التى تبدو مجافية للواقع .

(٢) تؤكد المصادر التاريخية أن تغنى المتنبى بفروسيته لم يكن عن غلو أو كذب ، فقد كان - بالفعل - فارساً شجاعاً . ولم يقربه سيف الدولة منه إلا بعد أن كان ضمن جنوده فى معاركه مع الروم . وفى موقعة ، دارت الدائرة على سيف الدولة ، ففر جنده ما عداه فى ستة نفر من بينهم أبو الطيب ، صمدوا ، واخترقوا صفوف العدو ، وكتبت لهم النجاة .

١٩٠

فاجأني الرقم لما أبلغني به عبد الرحمن السكندرى : مات متولى الخراج أبو بكر محمد بن على بن مقاتل . عندما أجروا التفتيش فى بيته ، وجدوا ثلاثمائة ألف دينار مدفونة . كل قصائدى لم تتح لى هذا المبلغ .. فما جدوى الشعر والحبر والأقلام والورق والمحابر ؟!..

١٩١

روى لى محمد ـــ مساء اليوم ـــ واقعة غريبة ، أبانت عن اضطراب أحوال البلاد ، وتفرق شمل الوزراء والقادة ، وتفرق بعضهم بعضًا ، وانصرافهم عن مراعاة الأهالى : حرض عمر الهاشمى أعوانه ، فوقفوا فى طريق موكب المخصى ، حتى إذا مر ، دعوا لأحمد البلبيسى . تأثر الإخشيدى تأثرًا بالغًا . توهم أن البلبيسى قد أصبحت له فى نفوس الناس هيبة ، فهم يدعون له بدلاً من الدعاء للسلطان . أكمل كافور سيره ، وقد تملكه الغضب ، بحيث لزم الصمت . لم يكلم أياً من معاونيه ، حتى وصل إلى المكان المنشود. كان أول ما رسمه ـ فور استقراره ـ إلقاء القبض على البلبيسى ، وإيداعه الحبس ، حتى ينظر فى أمره ..

١٩٥ ـ ١٩٦

بعد رفع سماط الأطعمة الفاخرة والأشوية من الخراف والأوز والدجاج والغزلان ، مد سماط الحلويات والفاكهة . وعندما اطمأن المخصى إلى خلوه مما كان يحفل به ، خلع على بعض القضاة والفقهاء وأهل الدولة . وأشار إلى شعرائه ، فأنشدوا قصائدهم . لم تصادف الكلمات ـــ فى نفسه ـــ هوى ، وإن أظهر الإعجاب . كلمات كأنها الشعر فى حفاظها للقافية والوزن ، لكنها تفتقد

المعانى ، أو أن معانيها ساذجة . أمر ، فنودى على حسن السيابى من خارج القاعة . لم يكن من المأذون لهم بحضور مجلس الأستاذ:

ـ ماذا لديك يا حسن من أمر مهم ؟..

شمل الرجل تردد ، كأنه راجع نفسه فيما انتوى أن يتحدث به .

هتف الأسود فى لهجة آمرة :

ـ تكلم !..

قال السيابى :

ـ لقد حلمت ..

قال المخصى فى غضب :

ـ تحسبنى مفسراً للأحلام ؟!..

ـ حلمى بشأن معاركنا مع الجماعات الوافدة ..

ـ هل قضيت عليهم فى منامك ؟!..

ـ كأننا عقدنا معهم صلحاً لإيقاف الدماء ..

ـ نحن نؤثر السلام ، وإن كنا لا نؤثر السلامة !..

واتت السيابى جرأة :

ـ فإذا أمكن تحقيق السلام ؟ :

ركز الإخشيدى عينيه على السيابى ، لا تطرفان :

ـ ماذا لديك ؟..

قال السيابى :

ـ لا شىء .. فقط أتمنى لو جاوزت محاولات الصلح حيز الحلم إلى امتدادات الواقع ..

شاب صوت المخصى حدة :

ـ دعك من التحدث بالألغاز .. هل نمد يدنا لمن يشغلهم قطعها؟..

قال السيابى :

ـ معلوماتى تؤكد أنهم يرغبون فى الصلح أضعاف رغبتنا فيه ..

قال المخصى :

ـ والأرض التى استولوا عليها ؟..

ـ قالوا : كل شيء قابل للتفاوض ..

ـ فإذا أصموا آذانهم عن صوت العقل ..

ـ نحن لن نهمل استعداداتنا ..

سكت المخصى عن الحوار ، فتصور الحضور كأنه وافق ع السير فى الدرب الجديد .

٢١٦ ـ ٢١٧

جرت أحاديث السلام ، فظهر من شخصية حسن السيابى ما كان خافيًا . تكرر ظهوره فى مجلس الأستاذ ، وفى المناسبات . لم يعد يستتر وراء أعوانه . سافر إلى مناطق الحدود ، وإلى بلاد أخرى بعيدة وقريبة ، للتباحث مع الجماعات الوافدة ، فى وسائل إحلال السلام . علا نجمه ، فساوى ابن حنزابة . عامل الناس أحاديثه كأنها تصدر عن الأستاذ . رويت عن حياته الخاصة أعاجيب ، كأنه جسد أكاذيب ابن أبى ربيعة[1] فلم تعد كذلك . فهو يميل إلى اللهو والطرب والتشاغل باللذات وشرب الراح . يولع بحب الملاح وسماع الغناء . يعاشر أرباب الملاهى . يشرب الخمر فى رمضان ، ويفسق بالمردان . لا يرعوى عن مغازلة نساء الفقراء ، ويسعى إلى الإيقاع بهن ، بصرف النظر عن خسة الوسائل ، ولا يصلى . عنده

---

(١) عمر بن أبى ربيعة : هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى . كان فاسقاً ، ويتعرض للنساء فى طريقهن للحج ، ويشبب بهن . وقد أنكر ـ لحظة وفاته ـ كل الحكايات التى نسبها إلى العديد من النساء العربيات ، وأنها كانت مجرد خيالات شاعر .

جوقة جوارى مغنيات ، يضربن الدفوف ، ويعزفن بالطنابير ، ويشدون أحلى الشدو . إذا لعبت الخمر برأسه ، ذهب عقله ، فمضى يفعل ما لا يليق بمنصبه ولا وقاره ، ويعاقب لأهون الأسباب، ويعاقب ـ أحياناً ـ بلا أسباب محددة ..

قيل إنه كان يدفع للرواة ، كى ينشدوا فى الساحات والميادين ما يؤلفونه من قصائد ، تدين خصومه ، تظهر سخط الناس عليهم ، ورفضهم لمظالمهم . يتوقع أن ينقل الأرصاد ما يسمعونه إلى الأستاذ، فيقضى بعقاب الخصوم ..

أسرف فى القتل والجور وخراب البلاد . قتل من الناس ـ فى السر والعلانية ـ ما لا يكاد يحصى ..

شدد أعوانه على الأهالى . يتهمون لغير سبب ، ويشون بمن لا يغادر بيته ، أو دكانه . ينالونه بأخطر التهم ، وأنه ضد ولاية الأستاذ، أو أنه ضد السلام الوشيك . تغيب السجون آلافا من عابرى السبيل ، والذين فى حالهم ، وابتعدوا عن كل ما يثير الريب ..

قال عبد الرحمن السكندرى :

ـ لا أبرئ الإخشيدى مما يفعله معاونوه .. إنه هو الذى اختارهم، وعليه أن يحسن رقابتهم ..

قلت :

ـ تلك أفعال السيابى وأعوانه ..

قال :

ـ السيابى لا يعمل لحسابه .. إنه موظف فى ولاية يرأسها الاخشيدى !..

٢١٨

أجاد السيابى تصوير قائد الألوف ، فى هيئة الذى يطمح إلى إزاحة كافور ، وتولى الحكم . نقل أعوانه الصورة إلى داخل القصر. تغيرت نفس الأستاذ . نقل إليه أعوان السيابى محاولات قائد الألوف المعلنة لاجتذاب الجنود إليه . لم يكن بيته يخلو من زوار يحملون الرتب المختلفة . وزاد فى العطايا ، وفى الخلع ، لمقدمى المئين ، ومقدمى الألوف ..

أمر كافور بعزل قائد الألوف . صار للسيابى الحل والربط فى قصر الإخشيد . هو الذى يقبل ويرفض ويقرر . لا يظهر علانية ، ولا يوقع على أمر . وكان يخترع المراسيم ، يؤلفها ، وينسبها إلى المخصى ..

عرفت أنه كان يشغل — قبل أن يقربه الإخشيد إليه — وظائف متعددة ، ثم ظل فيها . لا أدرى كيف يسعفه وقته ولا جهده على شغلها ، وإن قال لى السكندرى إن الرجل يسافر إلى قريته فى المنوفية ، ويعهد بوظائفه إلى نواب عنه ..

أمر الأستاذ ، فنودى فى البلاد والطرق والأسواق ، أن الصلح بين مصر والجماعات الوافدة قد انتظم ، فلا حرب بعد الآن . ومن أراد من أحد الجانبين أن يدخل مدن الآخر ، فلا تثريب عليه .

٢٢٠ — ٢٢١

الفرار من العبد الأسود اختيارى الوحيد[1] . البحث عن طريق العودة فى عصى المنافذ والدروب . البصاصون والأرصاد والجواسيس فى كل مكان . خطواتى محسوبة ، وأثارى مترسمة ،

(١) المقصود بالعبد الأسود : كافور الإخشيدى .

وأنفاسى كأنها قد سجلت فى دفاترهم . شملنى ما انتظم الأهالى ، الفحص عن أحوالهم ، والاستقصاء لأخبارهم . عيون السيابى وأرصاده ينبئونه بكل شىء ، والجواسيس يتفننون للوصول إلى ما يريدون معرفته ، حتى لو كان فى داخل البيوت والحجرات المغلقة .
قال : لو استطعت أن أراقب قلوب الناس ، لفعلت . حتى النساء اللائى يعملن فى البيوت ، أو يبعن ما تحتاجه العوائل من السلع ، دفعهن إلى التجسس على أحوال الناس ، وإبلاغ أعوانه بما يدور داخل الجدران . حتى التعليقات العفوية ، قد تضمر وراءها نيات خبيثة ، فهى تنقل إلى الأعوان كما قيلت . يتدبرون معانيها ودلالاتها، يتعرفون إلى جوانب البراءة والدناءة ، ما ينبغى تفويته ، وما يستحق المؤاخذة والعقاب ..

ربما أخذ السيابى بالظنة ، ساوى بين البرىء والمدان ، أجرى الغدر والظلم والبطش ، فباتت تلك صورة سياسته . أسرف فى ألوان التعذيب والتقتيل ، كالتوسيط بالسيف نصفين ، والقطع نصفين ، والإجلاس على الخازوق ، والتمزيق ، وقطع الأيدى والأرجل واللسان ، والصلب ، والحرق ، والتغريق فى النيل ، والتسمير على لعبة من الخشب ، والسلخ ، والعصر بالمعصرة ، ونعل القدمين بالحديد كما تنعل الخيل ، والتسعيط بالماء والملح والخل والجير ، والضرب بالمقرعة أو السوط أو العصا على الرأس أو القدمين ، وقلع الأضراس ودقها فى الرأس ، وإلباس الرأس خوذة محمية ، والشوى بالنار ، والدفن فى التراب حيًا ، وكحل العينين بالنار ، وتعليق اليدين، وربط القدمين بأثقال حتى تنخلع الأعضاء ، ويموت السجين ..

* * *

استأذنت فى لقاء المخصى :

ـ أزمعت ـ بعد موافقتكم ـ أن أخرج إلى الرملة[١] ..
قال :
ـ خيرًا ؟..
وأنا أظهر التذلل :
ـ أقضى مالاً كتب لى به ..
أشاح بيده :
ـ نحن نوجه من يقضيه لك ..
قلت :
ـ ليتنى أقضيه بنفسى ..
بدل حركة يده . واصل هزها فى الهواء :
ـ أقسمت عليك ألا تخرج ..
أضاف بلهجة مترفقة :
ـ أريدك أن تظل بيننا ..

٢٢٥ ـ ٢٢٦

جاءنى سمول الإخشيدى قائد العسكر . تبعه مشاعلى يحمل رأسًا على رأس رمح . كانت الأنباء قد سبقت وصول الرأس : صاحبها شبيب بن جرير العقيلى ، والى معرة النعمان . أراد أن يقتطع الشام من حكم الإخشيديين ، فهاجم دمشق بقوات . كاد يحقق ما انتوى ، لولا السم الذى دس له فى الطعام . سرى تأثيره فى أثناء القتال ، فسقط عن فرسه ، وتشرذم ـ بالتالى ـ جنوده ..

أعاد قائد العسكر روايات ، تباينت ـ أعلم بكذبها ـ عن مقتل العقيلى : امرأة من دمشق ، رمته من حالق بحجر رحى . تعثر

(١) الرملة : بفلسطين . كانت تابعة لحكم الإخشيد . أميرها ـ آنذاك ـ الحسين بن طغج .

جواده ، فسقط ميتا . كتفه كسرت ، فبدأ هجومه قبل تمام الشفاء ، فوقع حتف أنفه . قتله الصرع لإدمانه الشرب ..

كنت أعلم بكذب كل الروايات . الرواية الصحيحة ، الوحيدة ، هى ما أنبأنى به القادمون من الشام : قتل شبيب غيلة وغدرًا . رثيت العقيلى ، ولم أهنئ الأسود :

عدوك مذموم بكل لسان   ولو كان من أعدائك القمران
لله سر فى علاك ، وإنما   كلام العدا ضرب من الهذيان
لتمس الأعداء بعد الذى رأت   قيام دليل أو وضوح بيان
أت كل من ينوى لك الغدر يبتلى   بغدر حياة أو بغدر زمان
برغم شبيب فارق السيف كفه   وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه :   رفيقك قيسى وأنت يمانى
فإن يك إنسانا مضى لسبيله   فإن المنايا غاية الحيوان
وما كان إلا النار فى كل موضع   يثير غبارًا فى مكان دخان
فنال حياة يشتهيها عدوه   وموتا يشهى الموت كل جبان
..............[١]

٢٢٨

علمت من ابن رشدين ، أنه لما استمع الأسود إلى بيت القصيدة التى رثيت فيها شبيب بن جرير العقيلى :

وقد قتل الأقرن حتى قتلته   بأضعف قرن فى أذل مكان

قال الأسود :
ـ لا والله . بل بأشد قرن فى أعز مكان !..

(١) بقية القصيدة فى ديوان المتنبى . وأغلب ظننا أن هذه الحادثة كتبها المتنبى بروح من المبالغة ، أو أنها مدسوسة على هذه الأوراق .

بدا الموت وشيكا ، كأنه لامس جلدى . دفع إلى المخصىّ بأوراق ، تبينت فى سطورها خطى ..

٢٢٩ ـ ٢٣٠

ـ هذه كلماتك ..

من الذى أوصلها إليه ؟.. ناقشت حسن السيابى فيما آلت إليه الأمور ، وما رأيته فى حياة الناس . أبديت تخوفى من احتمالات المستقبل . طلب أن أسجل ملاحظاتى فى أوراق ، ليسهل تأملها ، والتدقيق فيها ، والعودة إليها إذا اقتضى الأمر ..

خلوت إلى الأوراق ليلة ، حتى مطلع الفجر . احترزت ، فلم أرو عما سمعته ، وما أكثره . رويت الأحداث التى وقعت لى ، أو شاهدتها ..

زدت ، فاقترحت ما ينبغى من حلول . كتبت ما كتبت حسبة لوجه الله . أرضيت ضميرى فلا شأن لى بما يجرى . توالى الأيام يقرب رحيلى من مصر . الناس والعادات والتقاليد والموروثات مما يغاير مألوف حياتى ، ونظرتى إلى الأمور . لا بد أن أفترق عنه فى يوم من الأيام ..

أنا شاعر فى بلاط الأستاذ . أحضر مجلسه ، أصادق الوزراء والقادة والصفوة ، أعبر الشوارع على جوادى ، فلا أكاد أبصر ما على الجانبين ، ولا من يلامسه الجواد من بشر وحيوان ، وإن لامس التعاطف ـ أحيانا ـ هؤلاء الذين يتحدثون باللغة نفسها التى أتحدث بها . يعجبون بقصائدى ، يحرصون على تدوينها لدى الوراقين ، تنطق نظراتهم باللوم والشك والأمل فى الفهم والتفهم . أجاوز النظرات ، فلا شأن لى حتى بهؤلاء الذين دفع السيابى بهم ، فأنا أراهم أمام بيتى ، وفى الشوارع والأخطاط ، وبعد أن أغادر مجلس الأستاذ ، أو مجالس الأصدقاء ، فى المساء المتأخر ..

توقعت أن يفعل الرجل مثلما فعلت ، فيرضى ضميره . يستعين بملاحظاتى فى التأكيد على ما يرى أنه الصواب ، وما يقترح فعله .. لكنه ـ فى خسَّة ـ رفع الأوراق إلى المخصى ..

عاود الأستاذ السؤال :

ـ أليست هذه أوراقك ؟..

قلت :

ـ نعم ..

جز أسنانه :

ـ تتآمر ضدى ؟!..

علا صوتى ، فجاوز التأدب الذى تفرضه حضرة الأستاذ :

ـ ما أتيت إلا لمدحكم ..

ـ تمدح فى العلانية .. وتتآمر فى السر !..

ـ من رفع الأوراق إليكم هو الذى طالبنى بتسويدها ..

صرخ :

ـ أملى عليك ما كتبته !..

قلت :

ـ إنما طلب بعض آرائى للاستنارة ، فكتبت له ما أراد ..

تقلصت بشاعة وجهه ، فبدا كأنه الموت :

ـ أيكما يطلب منصبى ؟..

وأنا أعانى خطورة موقفى :

ـ أنا شاعركم الذى نذر نفسه وكلماته للإشادة بمناقبكم ..

ـ هذا إنذار أول وأخير .. أنت تبيع مدحك لنا ، ونحن نشتريه .. فادع النبوة ، وانشد الولاية ، حيث لا تكون أرضى ..

أردف فى حسم باتر :

ـ ستتذكر أيام سجنك فى حمص كأنها النعيم ، إذا دسست

أنفك ثانية فيما لا شأن لك به !..

هذا رجل ألف التآمر . حتى عرش مصر ، وليه بعد أن دس السم لأونوجور ، ليصبح كافور فى عهد سلفه على هو الآمر الناهى ، حتى مات . لا يدرى أحد إن كانت ميتته طبيعية ، أم أن يد المخصى دست له السم مثلما فعل فى أخيه ..

هذا الرجل ، الأسود ، الخادم ، المخصى ، الكركدن[١] يشعر ـ كما أرى ـ أنه أضأل من أن يتولى إمارة مصر . حتى السكة لم يحاول أن ينقش عليها اسمه . فهو قد اطمأن إلى وضعه كوسط بين الأمير والوصى على العرش ..

٢٣٠

أى مكان أرتقى   أى عظيم أتقى
وكل ما قد خلق الله   وما لم يخلق
محتقر فى همتى   كشعرة فى مفرقى

٢٣٣ ـ ٢٣٤

لم أعد ألقى المخصى إلا أن يركب ، فأسير معه فى الطريق . لا أتردد على قصره ، ولا أجلس فى مجلسه ، ولا أمدحه . حر أنا فى الظاهر ، سجين فى الحقيقة . أفلح أعوانه فى ملئه غيظًا منى ، وحقدًا على ، فسد بابه دونى ..

بدا بين أعوانه كالمحجور عليه ، لا يتصرف فى الأمور إلا بموافقتهم ، يبلغونه بما توصلوا إليه ، فيعلنه أو يمهره باسمه . ربما صدر المرسوم باسمه ، دون أن يعلم متى ولا لماذا ولا من الذى

(١) وهو الخرتيت . حيوان عظيم الجثة ، غليظ الجلد ، أسوده ، قصير القوائم . له قرن واحد .

أصدره . ملكوا زمام الحكم بدلاً منه ، يعزلون ويولون سائر الموظفين ، كبارهم وصغارهم ، يفرضون الغرامات والإتاوات ، والأسود يعجز حتى عن توبيخهم على ما يرتكبون باسمه . ليس له أمر ولا نهى ، رغم الهالة التى أجادوا رسمها حوله . استبدوا بشئون الحكم ، فبدا مسكينا لا حول له ولا قوة ، وإن أكثر من الخطب والتصريحات التى تؤكد قوته ، وأنه يأخذ قراراته من نفسه ، ويتدبرها فى رأسه ، ولا يستمع إلا إلى ما يمليه عليه ضميره ..

بدا لى ـ قبل أن أعتزل مجلسه ـ كأنه يدرك كل شىء ، كأنه يحيط بأحوال الناس وشكاياتهم ومطالبهم ، يلم بالأوضاع فى الأسواق والوكايل والخانات ودواوين الحكم . يرد الشاكى روايته ، فيعلق بما ينبئ عن الفهم والمتابعة . يصدر القرار الصحيح العادل ، لكن التنفيذ يتوه فى الدواوين والأوراق والأضابير . يتوه صاحب الشكاية معه ، فيقعده اليأس عن المطالبة بحقه ، يتصور أن الأستاذ ضحك عليه ، ليصرفه ، وأنه يحمى هؤلاء الذين استلبوه حقه ، وأسرفوا فى ظلمه ، وإن تيقن العارفون أنه واجهة ، أجاد التخفى وراءها المحاسيب والأعوان ومتسلقة الحكم . الجثة الهائلة ، والبشرة الحالكة السواد ، والعينان الحمراوان ، والأنف الأفطس ، والشعر الأكرت ، الأشعث ، والزعيق ، والشخط ، والنطر ، والتهديد بالويل والثبور .. ذلك كله مما يخدع البسطاء ، والذين لا يعلمون ، يخدع الضعف الكامن فى أعماقه ، يتصور نفسه صاحب الأمر والنهى ، والقاضى بالظلم والعدل ، وما ينبغى أن تساس به الرعية .. لكن القرار الحقيقى فى أيد خفيه ، أجادت المداهنة والملق والتلون ، وهبطت بحرمة الدولة والمخصى إلى درك اضطرب معه ميزان الخلق ، وتلاشت روح المسئولية . اعتبروا أنفسهم فوق القانون والأعراف . توقع الناس أن تمتد صراعاتهم إلى كافور ، فتعزله .

٢٣٧

كنت إذا دخلت على كافور أنشده ، يضحك لى ، ويبش فى وجهى ، إلى أن أنشدته :

ولما صار ود الناس حبًّا   جزيت على ابتسام بابتسام

فما ضحك بعدها فى وجهى ، إلى أن تفرقنا . فعجبت من فطنته وذكائه ..

٢٤٠

هل هى خاتمة المطاف ؟.. هل انتهت رحلة الطموح فى ظل العبد الأسود ؟..

٢٤٥

ظل النيل على نقصانه ، فطاف المنادون فى شوارع مصر ، يأمرون الناس بالصوم ثلاثة أيام ، والخروج إلى الجامع العتيق ، أو الصحراء، لصلاة الاستسقاء . صعد الكثيرون إلى جبل المقطم ، فالدعوات عليه مجابة . عم الناس الحزن والقلق ، وارتفعت أسعار المحاصيل الزراعية ، وزاد السقاءون فى أثمان النقلات ، وتوجه القضاة والعلماء ــ بتكليف من الأستاذ ــ إلى مقياس الروضة ، حيث أسرفوا فى تلاوة القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة ، والابتهال إلى الله العلى القدير بزيادة النيل ..

٢٤٨

لم أعد أسمع عن أحمد البلبيسى . لم أحاول كذلك أن أسأل عنه ، حتى لا يساء فهمى . الهدف يبتعد ، ولعله توزع بحيث غابت تفصيلاته . ما يشغلنى الآن أن تتوضح التفصيلات ، ثم أسعى ــ بدأب ــ فى اتجاهها ..

فاجأنى ابن رشدين ــ عند زيارته لى هذا الصباح ــ بما أذهلنى . ظلت نفس المخصىّ متغيرة على البلبيسى ، فأمر بقطع لسانه ، وتسميل عينيه ، وبتر ذراعيه ، ومنع الطعام عنه حتى الموت . زاد ، فصادر أمواله وممتلكاته ، وإن رسم بإجراء راتب لأهل البلبيسى ، يعينهم على ضرورات الحياة ..

٢٤٩

أتحلف لا تكلفنى مسيرا   إلى بلد أحاول فيه مالا
وأنت مكلف أنبى مكانا[١]   وأبعد شقة وأشد حالا
إذا سرنا عن الفسطاط يومًا   فلقنى الفوارس والرجالا
لتعلم قدر من فارقت منى   وأنك رمت من ضيمى محالا[٢]

٢٨٣

دعانى الأستاذ إلى لقائه ــ عقب انتهاء مجلسه ــ لاطفنى ، وخلع علىّ ، ووعدنى أن يبلغنى كل ما فى نفسى ..

٢٨٦

هبط منسوب النيل ، فأنذر بكارثة . فى ناحية الروضة مقياس ، إذا حان الفيضان ، بشر الناس بكل زيادة . وإذا تأخر عن الموعد ، أبلغ القائم على المقياس بذلك . بلغ المقياس ــ كما علمت ــ اثنتى عشرة ذراعًا وأصابع . علا صوت الغلاء ، فأصم الآذان ، وشحطت الغلال ، وارتفع الخبز من الأسواق ، ووقفت الأحوال . أعلن الناس

---

(١) ماهو أشد على مكاناً .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة للمتنبى . قالها بعد أن رفض كافور خروجه إلى الرملة .

سخطهم لزيادة الأسعار ، وتعسف الكتبة والجباة ، وخرج العامة في مظاهرات ، يصنعون كلامًا ويلحنونه ، معناه وفحواه فقدان الحيلة أمام ارتفاع الأسعار . وصلوا إلى الجامع العتيق في يوم جمعة ، وازدحموا عند المحراب ، فمات العديد تحت الأقدام . تحدث إمام الجامع عن صلاة الاستسقاء ، وأن لها شروطًا ، هي : رفع المظالم ، وترك الذنوب ، والرجوع إلى الله ، كي ينزل الغيث رحمة بالناس . رفض الإمام ـ تبعًا لذلك ـ أن يؤم المصلين في صلاة الاستسقاء ..

حذره جنود المحتسب من المصير الذي يتهدده ، إذا أصر على رفضه ، فلم يعبأ بتهديداتهم . دخلوا عليه الجامع ، وفقأوا العينين اللتين شاهدتا ما تحدث عنه اللسان ، وقطعوا اللسان الذي جاهر بالمؤاخذة والرفض ، ثم فصلوا الرأس عن الجسد ، وحمله مشاعلي طاف به شوارع مصر وأخطاطها ، كي يعتبر من تسول له نفسه التمرد والثورة ..

* * *

قلت لمعاون المحتسب ، وهو يشرف على نقل الطعام إلى داخل بيتي :

ـ الجوع في الشوارع .. مع ذلك ، فإن الطعام يصل إلى في موعده ..

قال الرجل ، وهو يطمئن إلى ترتيب الصناديق والأوعية :

ـ أنتم من أعوان أبي المسك .. لا يجري عليكم ما يجري على العامة !..

٢٩٠

حدث ما أوشك توالي الأيام أن يقذف به في لجج اليأس . قابلت فاتك في الصحراء[1] . نسيت المخاوف والمحاذير ، وإن اجتهدت في الابتعاد عن الأعين المتلصصة . لا أدري أين الموقع على وجه التحديد . صحبني الرسول في غبشة الليل . تلفت يمنة ويسرة أحاذر البصاصين .. ما كدت أنصت إلى صدى الهدوء ورائي ، في بداية الطريق إلى الصحراء ، حتى أطلقت لجوادي العنان ، أتعجل اللقاء ..

أعادتني الخيمة التي وقف فاتك على بابها ، يحيط به الأعوان ، وضوء القمر ، إلى سني النشأة في البادية . أحببته وأنا أقبل عليه ..

خالف الرجل كل ما كنت أعددت نفسي للتحدث فيه . سأل عن أحوالي وقصائدي الجديدة ، وأصدقائي في مصر . تحدث عن المرض الذي يقاومه من زمن ، وكاد يهزمه . بدا بسيطًا وشهمًا وودودًا وطيبًا ، عكس الصورة التي أجاد أعوان حسن السيابي ـ من سواهم ؟ ـ رسمها ..

أجزل لي العطاء دون أن يطلب المدح ، فأثار إعجابي . أمر أقرب أعوانه إلى مجلسه ، فصحبني ـ على رأس جماعة ـ إلى نهاية الصحراء ..

فاتك . واحة ظليلة ، جديدة ، في صحراء قاحلة ..

٢٩٣

وقد أرى الخنزير أني مدحته   ولو علموا أن كان يهجى بما يطرى

(١) في المصادر التاريخية ، ان لقاء المتنبي وفاتك جاء مصادفة ، دون إعداد سابق .

٢٩٩ ـ ٣٠٠

أعلم أن المخصى يتملكه الحقد على منذ مدحت أبا شجاع فاتك الرومى الإخشيدى ، بقصيدتى التى أولها :

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

استأذنته في مدح الرجل . وافق وفى نفسه شىء ، لم يظهره . كان يكره فاتكًا فى باطنه ، ويخافه ، وأخبره أرصاده بسؤال فاتك عنى ، والرسائل المتبادلة بينى وبينه . حتى اجتماعنا بالصحراء ، وهداياه إلى . كان عبد الرحمن السكندرى يبلغنى بكل ما يتبادله الأرصاد عنى ، وكل ما رفعوه إلى المخصى ..

بدأت الوشايات تعمل عملها . مع أن الجواسيس والبصاصين يترصدون بى عند كل انحناءة طريق ، منذ دخلت مصر ، فإنى أعانى ـ الآن ـ تهمة التجسس لفاتك . أجبره كافور على اللواذ بمقاطعته فى الفيوم ، فأرسل إليه الأعوان فى مصر . يلتقطون الأنباء ، يتلمسون مواطن القوة والضعف . ربما استطاع أن يستولى على ملك مصر لنفسه ..

لم يكن ذلك كله مما يدور لى ببال . النبوة تهمة عانيت ويلاتها، نظرات التوجس والشك والسخرية . الولاية مطلبى العادل ، ترقى بى إليه همتى وقصائدى ..

علم كافور ـ بواسطة بصاصينه الذين أجاد حسن السيابى بثهم فى كل مكان ـ بلقائى مع فاتك . أمر ، فأقاموا الأرصاد والعيون . عنوا بحركاتى وسكناتى اهتمامًا عظيمًا ، أتشمم رائحتهم ، وأتسمع أنفاسهم . زادوا فكادوا لى ، ونصبوا الحوائل ، ومشوا إلى الضراء ، أتوقع منهم الغدر فى كل لحظة ..

مع أنى حر فى الظاهر ، محسوب على الأستاذ ، وصديق لأهل الدولة وأرباب السيف والعمامة ، فإنه من الصعب أن أتنقل حيث أشاء ، أو أتصل بمن أريد . غاب الوهم أنى كنت مقربًا من المخصى ..

أحاطت رقابته كل من يدخلون قصره . جعل رقباء على الرقباء . كانت التقارير ترفع إليه عن أقرب وزرائه . توجس من الغدر والتآمر ، فخصص من يتذوق طعامه قبل أن يأكل لقمته الأولى ، ويقاسمه كأس شرابه فى كأس أخرى .

. قيل أنه أمر بقتل القاضى إبراهيم العسال لتوه ، وفى فراشه . أبلغت عنه زوجه ، أنه عاب على الأستاذ بعض تصرفاته . نسى الرجل أن معظم زوجات خدم السلطان عيون له عليهم . تدين المرأة بحياتها المترفة لعطايا الأسود وهباته ..

قررت أن أحسم الأمر . يصعب أن تمضى الأمور على نحو لا يمنح ، ولا يعطى ، كأنها السيف فوق الرأس ، لا يقطع ولا يرفع .. طلبت الإذن بلقائه ..

قال فى لهجة تقاسمها الغضب والسخرية :

ـ أنت فى حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين ، سمت نفسك إلى النبوة .. فإن أصبت ولاية ، وصار لك أتباع .. فمن يطيقك ؟!..

توافد الجلساء ، ودارت الأحاديث ، فلم أشارك ، حتى انتهى الوقت ..

لماذا أرقت ماء وجهى إذن ؟.. ولماذا كتبت القصائد مدحًا لعبد خصى ؟.. ولماذا عانيت ـ ولا زلت ـ نظرات الاتهام ؟!..

٣٠٥

وأســـود مشفـــــره نصفـــه   يقــال له أنـــت بــدر الدجى

البيت كأنه الوحى . لا أدرى إن كان أتانى فى يقظة أو منام . هل أسبق ، أو ألحق به ، أبياتًا أخرى ؟..

٣١١

بيتان ـ لى ـ أتذكرهما :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى   إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا   وغنى به من لا يغنى مغردا

٣١٧ ـ ٣١٨

أعطى الجميع انتباههم لابن رشدين ، وهو يروى أحداث اليوم الغريب فى قصر المخصى ..

امتلأ المكان ـ على سعته ـ بالوزراء والوجهاء والأعيان ، على سيماهم توتر وقلق ، وهمساتهم تعلو عما تحياه المدينة من قلاقل واضطرابات . اشتد الغلاء ، وندرت الغلال ، وانتشر القحط ، وتفشى الوباء ، وفشا الموت ، فعجز الناس عن تكفين موتاهم ، وعن دفنهم ، فاكتفوا بإلقائهم فى قاع النيل ..

نادى الحاجب ، فدخل كافور . أضاف الغضب إلى قسمات وجهه ما غير من ملامحها ..

قال :

ـ لقد استحدثت فى هذا البلد ما لم يكن فيه من قبل . أقمت الدور ، وشققت الشوارع ، وبنيت الأسبلة والأحواض ، واستمعت إلى شكايات الناس ، وانتصفت للمظلوم من الظالم ، وجريت على الجميع بما وسعنى ، وحققت أول انتصار على الجماعات الوافدة .. فماذا يريد هؤلاء الحرافيش والزعر ؟..

لاحظ ابن رشدين صمت الجميع ، فناوشته نفسه فى الكلام . قال :

ـ يا سيدى الأستاذ .. شاهدت بنفسى ما يحياه الناس من ظروف قاسية ..

لكزه الجالس بجانبه ، فآلمه . لكن الأسود هز رأسه ، يحثه على المتابعة ..

قال ابن رشدين :

ـ لو أن الحضور هنا ـ وسواهم من السراة ـ تنازلوا عن الأقل مما يملكون ، لعاد الرخاء ، وأفاد بنعمائه الجميع ..

أطل من عينى كافور تساؤل غاضب :

ـ لهذا جعلت المكوس .. الغنى يدفع بما يعين الفقير على تحمل مشاق حياته !..

قال ابن رشدين :

ـ المكوس يدفعها الفقير ، ويترفع عن أدائها الغنى !..

قال المخصى فى غضبه :

ـ تثيرنى المبالغة !..

قال ابن رشدين :

ـ هذه هى الحقيقة التى يعلمها موظفو الحسبة جيدًا ..

نقر الأسود على الأرض بسيفه ، وقال :

ـ سأتحقق من هذا الأمر .. وبعدها : لكل حادث حديث ..

وانصرف فى زحام الأتباع والأعوان ..

نظر ابن رشدين إلى من لكزه : حسن السيابى . سبق سؤاله عن فعلته التى غاب مبررها :

ـ هل جننت ؟

أردف محذرًا :

ـ قد تدفع رأسك ثمنًا لحماقتك !..

هز ابن رشدين كتفيه :

ـ إنما أتينا لنبذل النصيحة .. وهذا ما فعلته ..

تضاعف يقينى أن الأحوال الصعبة لا يقع وزرها على الإخشيدى وحده . هؤلاء الذين يزينون له الأمور ، يضعونها فى إطارات الورد ،

يجعلون كل شيء فى غاية البهجة ، يدارون أفعالهم بالحديث عن الاستقرار..(١)

يعلمون أن زوال الشمس السوداء يعنى زوال شموسهم ، فهم يدافعون عنه ، بالحق ، وبالباطل . يبررون ما يفعله ، يسيغونه ، يبرزون فائدته وجدواه ..

قيل إنه لما تولى الرشيد الخلافة ، وقعت فى نفسه جارية من جوارى المهدى ، فطلبها لنفسه ، فقالت : لا أصلح لك ، لأن أباك قد طاف بى . وأرسل الرشيد إلى قاضيه أبى يوسف ، فقيه الأرض وقاضيها كما كان يسمى . سأله الرشيد : أعندك فى هذا شيء ؟!.. وأتاه جواب القاضى : اهتك حرمة أبيك ، واقض شهوته ، وصيره فى رقبتى . أصدر القاضى فتواه ، للحاكم لا لله . وهو ما يفعله أعوان الإخشيدى ..

٣١٩

لم يرو لى عبد الرحمن السكندرى ما حدث . إنما رأيته بنفسى . أديت ركعتى التحية للجامع العتيق . أفزعنى صراخ وشتائم وهتافات، تساقطت حصباء وأحجار على موكب يقترب من الجامع . احتميت بأحد الأعمدة ، اتقاء المقذوفات أن تصيبنى ..

وصل الموكب إلى داخل الجامع . بدا فى قلبه محمد بن عبد الله بن الخصيب . كان قد تقلد القضاء صباح اليوم نفسه ، فهو لا بد قد قدم ليبدأ عمله ..

صعد الرجل إلى المنبر ، وذكر الله ، وصلى على رسوله . ثم قال: ما الذى ينقم على ، وقد عمرت الأحباس ، ووفرتها ، وفرقت فى مستحقيها ، وما ضبط أحد قط أننى ارتشيت أنا ولا أبى !..

---

(١) هكذا بياض فى الأصل .

أثار الأستاذ ما حدث فى مائدة غداء ، دعانا إليها . بدا عليه غضب لما فعله الناس . تغيرت سحنته ، فبدت شائهة :

ــ لقد أرسلت أحد غلمانى يسأل عنه ، فيعرف الناس أنى أرفض إيذاء عمالى !..

٣٢١ ــ ٣٢٢

أسرف النيل فى النقصان ، فاشتد الغلاء ، وعزت الأقوات ، وعظمت الرزايا ، وتفاقم اضطراب الناس ، وعلا ضجيج الفقراء والمعوزين ، وشمل الخراب أكثر معمور مصر ، وفشت الأمراض ، واشتد الموت فى الناس ، فعجز الأهل والحانوتية عن تكفينهم ومواراتهم ، وانتقصت الأعمال ، ونهبت الضياع ، وماج الناس وصاحوا ــ كما فى عهود سابقة ــ : الجوع .. الجوع .. وتعذر وجود الخبز فى الأسواق ، فاختطفه الناس من الأفران ، وكثر المعروض مما فى داخل البيوت ــ درءًا للحاجة ــ فلم يجد من ينظر إليه ، أو يشتريه ، وترك الكثير من مالكى الأرض بلادهم ، وزروعهم، وباعوا بيوتهم وعبيدهم ، وخرجت النساء حاسرات الوجوه ، لا يعرفن أين يذهبن وأطفالهن فى أيديهن ، وانشغل كل شخص بحاله دون سواه ، كأنه يوم الحشر العظيم(١) ..

---

(١) الثابت تاريخياً ، أن نقصان النيل ، وما نتج عنه من انخفاض فى المحاصيل ، وتفشى المجاعات والأوبئة .. حدث بعد رحيل أبى الطيب المتنبى عن الديار المصرية ، فقد قدم إلى مصر فى ٣٤٦ هـ . وغادرها فى ٣٥١ هـ ، بينما قصر الفيضان فى ٣٥٢ هـ . ثم قصر - للمرة الثانية - فى ٣٥٦ هـ ، بما يؤكد أن أبا الطيب المتنبى لم يكن شاهداً على قلة ورود المياه ، وما أسفر عنه من نتائج . ولعل أحداث مصر وصلته حيث يقيم ، فتناولها كأنه رآها رؤية العين .

٣٢٥ - ٣٢٦

حين تولى عبد الحكيم التهامى أمر الخراج ، بدلا من البلبيسى ، التزم الليونة والمطاوعة والاستجابة لمطالب الأهالى . نودى فى مصر بإبطال المكوس الزائدة ، وتفرق غالبية الكتاب وأرباب الشرط من مقاعدهم التى كانوا يجلسون بها ، يساعدون المختصين فى أخذ المكوس ..

بدا تخفيف المكوس عن العامة أمرًا ملحًا . بدونه لا يصح حكم ولا يستقيم عدل . توالى فرض المكوس أضحى ظاهرة ، ضاق بها الخاصة والعامة ، تمنى الجميع زوالها ، أو التخفيف منها . اجتهد الجباة فى تحصيلها ، دون شفقة ، وبلا هوادة ..

أمر التهامى ، فأحضر السادة والوجهاء وكبار الأعيان ، ما فى ملكهم من ذهب وفضة ، وحلى نسائهم . حتى أوانى البيوت المصنوعة من الذهب أمر بإحضارها ..

رسم لأعوانه بطلب التجار وأرباب الأموال ، أخذ زكوات أموالهم ، وما عليهم من مكوس . وأمر قاضى القضاة الحنفية بتحليفهم على ما يزعمون أنه ملكهم ..

فلما أسرف النيل فى نقصانه ، وزاد الشح والجدب ونقص الغلال ، أمر التهامى أعوانه ، فدعوا الناس فى الأسواق والشوارع والأخطاط ، إلى ترك الإسراف فى المآكل والمشارب والثياب ، وتحزيم البطون ، والتدبر جيدًا فيما ينبغى ، وما لا ينبغى ، إنفاقه من مال ..

زاد ، فدعا الناس إلى ترك أشياء مما هم فيه من الترفه . قابلوا دعوته بسخرية وتشنيع ، وتفاقم طعنهم وهزؤهم بأهل الدولة ، وأكثروا من القول الفاحش فى الأستاذ ، وشاع الترحم على مقامه..

ثم فرض التهامى من الضرائب الفجائية ما لم تشهد البلاد له مثلا. أمر بجباية إيجار العقارات لأشهر عديدة ، قادمة . لم يقتصر الأمر

على الدور والحوانيت ، وإنما تعداه إلى الحمامات والسواقى والطواحين والسفن والدواب ، وكبس أعوانه البيوت بالمشعل والشمع ، يكتشفون ما أخفاه الناس ، فيحصلون عليه ، يعتبرونه مقابلاً للضرائب التى تعددت مسمياتها ..

اشتد سخط الأهالى بسبب ما اتخذ من طريق تعسفية لجمع أموالهم ، بالحق وبالباطل . وكثرت الأوراق التى كانت تدفع من تحت الأبواب ، دون أن يعرف كاتبوها ، تنعى على الإخشيدى فساد أعوانه ، وتطلب زوال حكمه ، وتدعو الله أن ينفرج الضيق الذى عانوه فى أيامه ، ويتبدل الحال ، ويعود الرخاء . وأبطل المشايخ الأذان والصلاة ، وأقفلوا أبواب المساجد ، وطلع بعض الأهالى فوق المنارات ، يكثرون من الدعاء على الظالمين ، وأقفل غالبية أهل الأسواق دكاكينهم ..

نزل معاونو التهامى إلى الأسواق ، ينادون بالأمان ، ويفتحون الحوانيت ، فتصدى لهم رجال ونساء وأطفال . ضربوهم بالشوم والنبابيت ، ورجموهم بالحجارة ، فشهروا السيوف فى الوجوه المفعمة بالغضب ، ولاذوا بالفرار ..

٣٢٧

قال لى ابن رشدين إن الأستاذ هجر قصره الجديد ، القريب من بركة قارون ، ومن جامع ابن طولون ..

كنت قد ألقيت فى مناسبة افتتاحه قصيدة ، فقال ابن رشدين لدهشتى المتسائلة :

ـ لم يطق العفونة المنبعثة من المياه الراكدة أمامه !..

٣٢٩

تفاقمت الأوضاع ، فصارت أحوال المملكة ضائعة ، والأسود لا يلتفت لشيء من ذلك . شرقت البلاد ، وحصل للناس من العنت والضرر ما يفوق الوصف ، فكرهوا معاونيه ، وكرهوه لسكوته عن تصرفات المعاونين والأمراض وشدة الغلاء وعدم الأقوات وتضاعف المكوس . كثر الخوف من الحاضر ، ومن قادم الأيام . بدا الناس في غاية الذل من الفقر والحاجة . وتضاعفت أعداد المتسولة في الشوارع والأسواق . وخرج الجميع إلى الصحراء ، أهل الدولة وأرباب السيف والقلم والعلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنساء والأطفال وطائفة اليهود وطائفة النصارى . ونصبوا في الصحراء منبرًا، صعد إليه قاضي القضاة ، وخطب في الاستسقاء[1] ودعا الله تعالى ، فردد الناس دعاءه ، وأخذ التأثر البعض ، فعلا نحيبه ..

روى لي محسد ، عن الناس في الأسواق : اشتروا طعامًا فاسدًا ، لا تأكله القطط أو الكلاب ..

تحادث الناس ، أن أحد أعوان التهامي تقاضى مقابلاً ضخمًا ، لقاء تفويتها ، ونزولها في الأسواق ..

٣٣٣

أحكم الجوع قبضته ، فأكلت الناس بعضها بعضًا ، وأكلت الميتة والكلاب والقطط . وكان إذا قوى القوى على الضعيف ، يذبحه ويأكله . وسمعت عن زوجين ، افترست الكلاب ـ بتأثير الجوع ـ طفلهما ، وهما لا يستطيعان لها دفعًا . شدهما الإعياء إلى الأرض ، فهما لا يقويان على الحراك . وصار الناس يخرجون جماعة ، حتى لا يتعرضوا ـ كأفراد ـ إلى الخطف والذبح ..

(١) صلاة الاستسقاء : كي يغيث الله المسلمين بالأمطار .

٣٣٥

أحق عاف بدمعك الهمم … أحدث شيء عهدًا بها القوم
وإنما الناس بالملوك وما … تفلح عرب ملوكها عجم
بكل أرض وطئتها أمم … ترعى بعبد كأنها غنم

٣٣٩ ـ ٣٤٠

لزمت بيتي ، بعد ما بلغني ما حدث :

ماج الناس ، وغلقت جميع الدروب والخوخ والأخطاط ، وانتشر أهل الفساد في أرجاء المدينة ، صغار التجار والعمال والصناع والباعة والسوقة والسقايين والمكارين والمعدمين والمتعطلين والشحاذين والأوباش والصعاليك والصبيان والزعار والعياق والمنخرطين في مناسر الحرامية والحرافيش ..

علا صوت في زحام المتظاهرين . شك مسعود ـ فيما روى لي ـ أنه لعبد الرحمن السكندري :

ـ اتبعوني إلى بيوت عمال كافور .. ننهبها كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء ، أو ينصرنا الله عليهم[1] ..

سعى السواد الأعظم من الأهالي . وقفوا على أبواب الوجهاء والأعيان وأهل الدولة . طالبوا برفع الظلم والجور ، ومنع العدوان ، وكف الجباة ، وقطع الفتنة ، وإبطال الحوادث والمكوسات ، وإقامة الشرع ..

(١) تؤكد روايات المؤرخين أن المتنبي ـ إبان إقامته في مصر ـ لم يشهد قلاقل أو اضطرابات من أي نوع ، وإنما كانت الحياة هادئة ، وادعة ، والإدارة حكيمة ، والحدود آمنة ، وممتدة ـ أيضاً ـ إلى فلسطين ، وبعض مدن الشام وبلاد وراء البحر الأحمر . ولعل تلك القلاقل والاضطرابات التي أشار إليها أبو الطيب ، مبعثها خياله الشعري ، لا الحقيقة الموضوعية .

صاحوا :

ــ فلننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا !..

صعد البعض على المآذن ، ينادى ويصيح ، ويكثر من الدعاء على الظالمين ، ويدق الطبول ..

انتشر الناس فى الشوارع والأخطاط . أطل من العيون غضب ، وأمسكت الأيدى بالعصى والشوم وقطع الحديد ، وما استطاعت التقاطه فى مدها الصاخب ..

كسروا حبس المعونة[1] وأفرجوا عن المسجونين ، وتفرقوا على بيوت الأمراء وحواصلهم ، وانتهبوا ما وجدوا ، وشعثوا الدور ، وأخذوا أبوابها ، والكثير من أخشابها ، وما استطاعت أيديهم الحصول عليه من أثاث ومتاع ..

سلبوا من انفردوا به ثيابه ، تخطوه ، وأخذوا ما عليه ، وصاحوا :

ــ هذا لسوء أفعالكم ، وظلمكم !..

اقتحموا بيت الهاشمى ، وأحرقوا بابه . نهبوا بسطه ، وجميع قناديله ، وماله ، ورياشه ، ونهبوا ما فى إسطبله من الخيل والبغال ، وما فى حواصله من برك ونحاس وسلاح وصينى وسكر وغير ذلك . نهبوا كل شىء ، حتى الرخام والأبواب والشبابيك ..

اقتحموا كذلك قصر الوزير ابن الفرات . كسروا بابه بالفئوس ، وتسلقوا إليه من خارجه ، وأتت النهاية على جميع ما فى القصر من أثاث وتحف وأطعمة وأكسية وأموال ، وحملوا أكياس الذهب

(١) حبس المعونة : كان يعرف أولا بدار الشرطة . ويقع قبلى الجامع العتيق . جدده عيسى بن يزيد الجلودى ، فى عصر المأمون (٢١٣ هـ .) ثم عرف فى ٣٨١ هـ . باسم المعونة . وتحول إلى مدرسة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى .

والجواهر النفيسة ، والأسلحة ، وجروا البسط خارج القصر ، وقطعوها بالخناجر والسكاكين ، وتقاسموها ..

اقتحموا دار موسى النجدى ، كبير معاونى السيابى . عانوا وشاياته الظالمة ، وقتله الأبرياء لغير جريرة . هجموا عليه ، وقتلوه ، وجروا جثته إلى الطريق ، يصفعونها ، ويبصقون عليها . ثم رفعت رأسه على رمح ، وطاف بها الناس فى الشوارع ، يتنافسون فى ضربها ، والبصق عليها ..

وقبض أهالى دمنهور على مندوب الوالى . ضربوه ، وكتفوه ، وحلقوا نصف لحيته ، وأركبوه حمارًا ، وجرسوه فى موكب هائل ، وطافوا به المدينة وهم يضربونه بالنعال ، ويزفونه بالزغاريد والغناء والموسيقا . ثم قتلوه فى النهاية ..

ورصد بعض الغوغاء للتهامى ، حتى رأوه قادمًا ، فرجموه بالحجارة حتى كاد يهلك ، لولا أن أنقذه بعض أعوانه ، ودخلوا به بيتًا قريبًا ..

واختفى السيابى فى بيته ، خوفًا من العامة أن تبطش به ..

ثم صار الأهالى يقبضون على كل من يرونه من أعوان ابن حنزابة أو الهاشمى أو التهامى ، يعرونه ، ويقتلونه حالاً . فإذا هم أحدهم بإيذائه قبل قتله ، منعوه ، وقالوا إنهم ما أرادوا إلا دفع الظلم ، وعقاب الظالمين بما أنزل الله ، لا بالقسوة والشناعة ..

اشترطت الأهالى على بقية الأعوان ــ حتى يتيحوا لأنفاسهم انتظامها ــ أن يتوبوا ، ويرجعوا ، ويلتزموا بما تذهب إليه الشريعة ، ويبطلوا المظالم ، ويكفوا عن مد أيديهم إلى أموال الناس ، ويسيروا فيهم سيرة حسنة ..

حمل الأهالى أسلحتهم ، ولازموا السهر بالليل فى الشوارع والحارات والأزقة ، وعلى أبواب البيوت ، يطوفون فى الأرجاء

بالنبابيت والشوم ، يعلنون ظلم الإخشيدى وفساده . جرت العادة منذ القديم ، أن أهل البلد والفلاحين يعزلون الوالى الظالم . حتى الخليفة والسلطان إذا سار بالجور ، فإن الناس يعزلونه ويخلعونه ..

عرفت أن أعدادًا من الجند شاركوا الناس مظاهراتهم . عجز سمول الإخشيدى ، قائد العسكر ، عن إرضائهم ، وأخفق فى تلبية مطالبهم . ثاروا عليه ، ونهبوا قصره ، فلجأ إلى الاختفاء فى مكان أخفق حتى أمراء المخصى فى اكتشافه ..

بلغ الخطر مداه المعلن ، فطالب المحتشدون بعزل وزراء المخصىّ لقبح سيرتهم ، وعتوهم على الأهالى ، وترويعهم الآمنين ، وإسرافهم فى إراقة الدماء ، وأخذ الأموال ..

* * *

قلت لعبد الرحمن السكندرى :

ــ مفهوم أن يثور الأهالى ضد الجوع .. ولكن : لماذا نادوا برفض السلام ؟..

شاب صوته ارتباك :

ــ اسأل المتظاهرين !..

قلت :

ــ قال ولدى محسد إنه ميز صوتك بين الحشود التى تجمعت أمام قصر ابن حنزابة ..

قال السكندرى :

ــ إنى موظف فى خدمة سيدى أبى المسك .. فكيف أتظاهر ضد عماله ؟!..

قلت :

ــ أصارحك بأنى ــ ذات يوم ــ كنت أخشاك .. وهأنتذا الآن تخشانى !..

قال :

ــ ليس فى الأمر خشية .. فكلانا فى خدمة سيد واحد !..

قلت ، وأنا أمد ساعدى لأحيط ــ مودة ــ بخصره :

ــ ثق أن انشغالى بالقضايا المصرية ، يقل عن انشغالك بقول الشعر ..

قال :

ــ لكننى لست شاعرًا ..

قلت فى حسم :

ــ وأنا .. لا شأن لى بمشكلات الآخرين !..

٣٥٢ ـ ٣٥٣

تلاشت الدولة ، واضمحل أمرها ، وظل الناس فوضى . اضطربت الأحوال بمصر الفسطاط وما حولها اضطرابًا شديدًا . انتهبت الأسواق ، وأحرق الكثير من الدور والأبنية ، وسودت جدران البيوت والمقابر والمساجد ، بعبارات ضد السلام الوشيك . داخل الخوف أعيان البلاد ووجهاءها ، على نفوسهم وأموالهم وأهاليهم ، وأفعمهم الحذر من وثوب أهالى البلاد . عملوا لحفظ دورهم ومتاعهم ، وأقاموا الدروب فى مطالع الأخطاط والسكك المفضية إلى حيث يقيمون ، واستعدوا ــ وأعوانهم ــ للقتال عن الأنفس والمتاع والأملاك والحريم ..

بدا الخطر ماثلا فى الأفق ، لما اجترأ أسافل الناس على الأكابر . ذوى الخوف من مهابتهم ، فصاروا يعاملونهم كأنهم فى مثل قامتهم ، أو دونها . طفق ذوو الأصول الطيبة يستعدون لريح السموم

القادمة(١) . أقبلوا على تخزين الماء والمؤن فى البيوت ، وأسرفوا فى شراء البقسماط والرقاق والدقيق والقمح والشعير ..

وقال لى عبد الرحمن السكندرى :

ـ لم يكن ما حدث إلا من فعل عماله(٢) ، حملوا الناس ما لا يطيقون ، حتى تفاقم الأمر ، وغادرت الأعصاب أجسامها !..

٣٥٨ ـ ٣٥٩

هذا شعب محير . طفت بشوارعه وأسواقه ، وجلست إلى علمائه وأدبائه ووجوهه وناسه العاديين . يبدو ظاهره مخادعًا ، فهو يحسن المجاملة والوفادة ، وربما التملق . دائم الابتسامة ، والميل إلى الدعابة ، كأنه لا يعنيه من أمر دنياه إلا أن يأكل ويشرب ويتناسل ، ولا يعنيه من أمر آخرته إلا أن يموت موحدًا بالله ، مؤمنًا بعقيدة الإسلام . صراعات الحكام وخلافاتهم ومؤامراتهم لا يعبأ بها ، يطلب الحياة يومه ، وغدًا يوم آخر ..

بالاختصار ، فهذا شعب كأنه أسلم نفسه لمقود الذل .. لكن النظرات التى تلتمع فى الأعين ، الأسئلة التى كأنها قيلت عفوًا ، الملاحظات والتلميحات والصمت الحزين الذى يعقب كل مجلس دعابة : اللهم اجعله خيرًا .. ذلك كله يحيرنى ، يجعل السؤال سادرًا : أين هى الصورة الأخرى ، الحقيقية ، لهؤلاء المصريين؟..(٣)

أمر المخصىّ أعوانه ، فنادوا فى الناس بالأمن والأمان ، والبيع والشراء ، شاركهم فى المناداة بذلك حملة العمائم لما لهم من

(١) يعنى القلاقل والاضطرابات التى يتوقع حدوثها .

(٢) يقصد موظفى كافور الإخشيدى . (٣) هنا ، الفقرات مطموسة .

سطوة وتأثير . كلماتهم كأنها الوحى أو التنزيل ..

سار فى الشوارع والأخطاط ، رجل على فرس ، يقرأ من ورقة ، أن الأستاذ قد أزال المظالم ، وهو يأمر الناس بتقوى الله ، وطاعة أولى الأمر ، وأن لا أحد يشوش على أحد ، والدعاء للأستاذ أبى المسك كافور بالنصر . ونودى ـ بعد انقضاء الصلاة فى الجامع العتيق ـ بالأمان ، والماضى لا يعاد ..

ضج الناس بالدعاء للأستاذ ، وقد كانوا مترقبين بلاء كبيرًا ينزل بهم منه ، لخروجهم عليه ، وكثرة ما ضربوا ودمروا ، ومبالغتهم فى سب المخصىّ ، وإعلانهم بفاحش القول له ..

٣٨٥ ـ ٣٨٧

أوفى النيل ، وعاد إلى منسوبه الطبيعى ، فعادت الأمور إلى أحوالها ، وتوافرت الغلال والمحاصيل ، وظهر ما كان مختفيًا من اللحم والخبز والبضائع والأطعمة ، وانحطت الأسعار ، وعاد الفلاحون والتجار للبيع والشراء ..

قيل إن وفاء النيل لم يكن هو السبب فى انحطاط الأسعار ، لكن ابن حنزابة أفلح فى تأجيل دفع الديون التى تكاثرت على البلاد ، شحت الغلال والبضائع بما أحدثه نقص مياه النيل ، قلت الأموال بالتالى ، فصارت القروض المادية والعينية واجبة ، من بلاد مجاورة وبعيدة ، تدين بالإسلام والنصرانية ، وبعضها تدين شعوبها بالكفر أو الزندقة . فلما أفلح ابن حنزابة فى تأجيل دفع أقساط الديون ـ فى مواعيدها ـ ذهبت الأموال فى تعويض النتائج التى أحدثها غياب وفاء النيل ..

قيل أيضًا ، إن المخصى بدأ يراجع نصائح معاونيه فى السلام مع الجماعات الوافدة ، يقلب ويعيد ترتيب الأمور ، يناقش ـ مع أصوات

معارضة ـ بدايات المشكلة : يتلمس جذورها ، يتشوف توقعات المستقبل : من يضمن ألا تغادر الجماعات الوافدة ما وعدت به ، فتعاود إغاراتها ، تروع الآمنين ، وتسلب الأراضى والدور والمخازن والأموال ؟..

كان الإخشيدى يميل ـ بطبعه ـ إلى السلم . يرغب فى أن يسود السلام حتى هؤلاء الذين وفدوا من أقطار بعيدة ، واستوطنوا الحدود، فرحب بدعوتهم للصلح . أحب أن يفتح صفحة جديدة ، يمحو بها ما كان بين مصر وبينهم من عداوات ، أسفرت عن معارك ودمار وقتلى . أعانه تأييد الناس على اتخاذ القرار ، رحبوا بالاستقرار الذى غاب ـ لسنوات ـ عن حياتهم ، أظهروا الفرحة ، وتهيأوا للرخاء القادم . وحين تصاعدت الأحداث ، وجرى ما جرى ، ناقش التحذيرات التى أهمل سماعها ، والالتفات إليها . دعوى السلام لا أكثر من مكيدة ، دبرها الأعداء فأحسنوا التدبير . الأطماع هى الأطماع ، وما يعلنونه فى الظاهر غير ما يعدون له فى الخفاء ، والخطر قائم وممتد . لم تعد التحذيرات ـ كما كانت ـ قطرات فى موجات التأييد الكاسحة الغلابة ، إنما هى وجهات نظر ، تدبرت فرأت ما لم يدقق فى رؤيته بقية الأهالى ..

* * *

هدأت الأحوال ، فأمر الإخشيدى بالتحقيق فى بواعث ما جرى . تأثرت نفسه فى البداية ، وأشربت بالعطف على المخالفين . انتوى أن يرسم بالعفو عنهم .. لكن نفس ابن حنزابة لم تطاوعه على هذا الرسم . شدد على معاقبة الذين خرجوا على النظام ، سرقوا وحرقوا ودمروا . حتى السلام الذى يضع حدا لهجمات العصابات الوافدة على مناطق الحدود ، أعلنوا تشككهم فيه ، ورفضوه ..

نودى على الناس : فليأمن على نفسه من أخذ أو نهب شيئًا ، ثم رده . أما من يكتم ما بحوزته ، ولا يعلن عنه ، فإن عليه أن يتحمل عاقبة فعلته . فإذا أقسم أحد أنه ليس لديه شىء ، ثم ثبت عكس ذلك ، ضرب بالسياط حتى لا يعاود جريمته !..

تولى التهامى عقاب هؤلاء . أودع بعضهم الحبس ، لمدد تفاوتت بين القصر والطول ، وألزم البعض الآخر غرامات ، ووضع آخرين تحت الضرب والجلد ، كى لا يتكرر ما حدث ..

لم يترك الإخشيدى ابن حنزابة على هواه ، يفصل فى الأمور بما يثبت الظلم ، وإنما راجع بنفسه نتائج التحقيق ، وسأل كثيرًا فى أقوال المتهمين ، ودفاعهم عن أنفسهم بأنهم لم يفعلوا ما فعلوا إلا لأن الجوع هدهم ، فلم يكن أمامهم إلا أن يثوروا عليه ، على الجوع لا على الأستاذ . كادت نفس الإخشيدى ترق ، فيأمر برفع الأحكام ، أو التخفيف منها .

سأل :

ـ هل عزت الأقوات بالفعل ؟..

قال ابن حنزابة :

ـ فكيف انتظمت أنفاسهم حتى اليوم ؟!..

قال الإخشيدى :

ـ فلماذا صاحوا : الجوع ؟!..

قال ابن حنزابة :

ـ هتفوا ضد السلام أيضًا ..

شاب صوت الأسود غضب :

ـ لماذا ؟..

قال ابن حنزابة :

ـ كل الأسباب واجهة زائفة لهدف خبيث .. هو الخروج على حكم سيدى أبى المسك !..

تدبر الأستاذ ملاحظة ابن حنزابة . من يهاجمون أعوان الأستاذ اليوم ، قد تسول لهم نفوسهم بأن يهاجموا قصر الأستاذ فى الأيام المقبلة ..

هز المخصي رأسه في اقتناع . رفض تفسير ابن رشدين بأن ما جرى كان تعبيرًا عن غضبة الجياع على الظروف الصعبة . سمى ما حدث غضبة اللصوص . حطموا الدور ، ونهبوا البيوت ، وسطوا على المتاجر والحوانيت ، وخالفوا ما نص عليه الشرع بوجوب الخضوع للسلطان . من يريد أن يحتج أو يشكو أو يتضرر ، فإن أمامه السبيل الواضحة لذلك . ثمة العمال الذين يعد من صميم أعمالهم استقبال الأهالى ، والاستماع إلى شكاياتهم ، والأمر بحلها . القول بأن الموظفين يعنون بمصالحهم ، ولا يعنيهم ما يشكو منه الناس ، زعم تنقصه الأدلة . فليرجع قصته إلى القاضى ، أو الموظف ، أو الأستاذ نفسه . مجلسه يفتح أبوابه كل يوم سبت لمن يحمل مظلمة . لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا حجة بنقصان الطعام لإشاعة الفوضى والدمار الأسود . السبل التى ينبغى اتخاذها واضحة . لو أن كل امرئ اتخذ سبيله الخاص ، فكيف تتحقق الفوارق بين الحاكم والمحكوم ؟!..

أما الهتاف ـ غير المتوقع ـ ضد السلام ، فإنه يشى بالأيدى الخفية التى تحركت فى الظلام ، همها الإفادة من معاناة الأهالى بما ينشر الفوضى والدمار ، ويضع الغد فى قبضة الظلام ..

أنصت المخصيّ إلى مرافعة ابن حنزابة جيدًا . سأل ، وناقش ، وشدد على جلاء ما غمض . ثم هز رأسه فى اقتناع بما صدر من أحكام ، وأمر بتثبيتها ..

٣٩٠ ـ ٣٩١

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام
ذرانى والفلاة بلا دليل ووجهى والهجير بلا لثام
فإنى أستريح بذى وهذا وأتعب بالإناخة والمقام
ولما صار ود الناس خبًّا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام
أقمت بأرض مصر فلا ورائى تخب بى الركاب ولا أمامى
وملنى الفراش وكان جنبى يمل لقاءه فى كل عام
قليل عائدى سقم فؤادى كثير حاسدى صعب مرامى
وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفسى وعنها فتوسعه بأنواع السقام
كأن الصبح يطردها فتجرى مدامعها بأربعة سجام
ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقاك فى الكرب الجسام
يقول لى الطبيب : أكلت شيئا وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبه أنى جواد أضر بجسمه طول الجمام
تعود أن يغبر فى السرايا ويدخل من قتام فى قتام
فأمسك لا يطال له فيرعى ولا هو فى العليق ولا اللجام
تمنع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام(١)

---

(١) فى عام ٣٤٨ أصابته الحمى . وهذه الأبيات جزء من قصيدة كتبها فى وصف تلك الحمى .

٣٩٣

هل ترانى أخطأت بترك سيف الدولة ؟.. السعى بالوشاية لا يختلف فى مصر عما ألفت فى بغداد . أتلفت ــ بعفوية ــ فى كل مكان . أفتش عن الأعين المتلصصة ، والآذان المتصنتة ، حتى فى القعدات الخاصة . أحس بفقدان الطريق . تمور التناقضات ، فيغيب الهدف ..

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى   إن النفيس غريب حيثما كانا

٣٩٥ ــ ٣٩٦

أحاطت بى المؤامرات ، فحاصرتنى تمامًا . غيوم الخطر ظللت سمائى . المأساة أطلت فى نهاية الأفق ..

بلغت السعاية مداها بينى وبين المخصىّ . لعب السعاة دورًا لا ينكر فى التدبير ونصب الحبائل وتوسيع الهوة وإحداث الفرقة . رشوا ، وأفسدوا ما بيننا ، وأضافوا كيدًا إلى كيد ..

آثرت السلامة ــ يعلم الله ! ــ وفضلت العافية . انتويت العودة إلى الشام . المؤامرات تتجدد بتجدد كل صباح . أحيا فى جو قاتم بالدسائس ، مختنق بالفتن . الجو نفسه الذى خلفته فى الشام ، وإن لم أعد أتيه على سيف الدولة ــ وهو من هو ــ أخاطبه فى ندّية ، ولا أمدح حتى يلحف فى الطلب ، فلا أقدم له فى كل عام سوى قصيدة واحدة ، وربما اثنتين ، حين يفضى به اليأس إلى مسارب الغضب .

سيف الدولة !.. اشترطت عليه ــ لما عرفت ، للمرة الأولى ، طريقى إليه ــ ألا أكلف بتقبيل الأرض بين يديه ، وألا أخلع سيفى فى حضرته ، وأنشده شعرًا إلا وأنا جالس ، وأنشده طواعية فلا أقول بيتا واحدًا إلا إذا واتتنى قريحتى . أخوض غمار الحرب ، أفرح للانتصارات ، أحزن للهزائم ، أتبع فنى ، أتغنى بالخيل والليل والبيداء

والسيف والرمح والطعن والضرب والسرى والقنا والقواضب والقرطاس والقلم والبطولات ، تطير قصائدى فى الآفاق ، تتردد فى كل الأقطار ..

هل فررت من ذلك كله ، إلى عبودية العبد الأسود ؟..

* * *

هذا عصر يمور بالدسائس والأحقاد والأهواء وفساد النفوس ..

الشر يحيط بى من كل جانب ، ألحظه فى قصر الأسود ، فى بيوت الأصدقاء ، فى الأسواق ، فى الشوارع والدكاكين والمساجد وأسفل أسوار بيتى ، أرصاد وعيون ترافقنى فى كل مكان ، لا تفارقنى أينما حللت . لم يعد أمامى سوى الرحيل ، الفرار من هوان الحياة فى ظل الأسود ، ومؤامرات ابن حنزابة ، وسفالات الأعوان ، وعنت الأمور من حولى ..

ــ هل يأذن لى مولاى بالعودة إلى الشام ؟..

ثنى نظرات متسائلة :

ــ لماذا ؟..

قلت :

ــ الحنين إلى مواطن الصبا ..

ــ مللت الإقامة بيننا ؟..

ــ كل طائر يعود ــ يومًا ــ إلى عشه !..

وهو يوسط الفراغ بيده :

ــ دعك من تعبيرات الشعراء . أكرمنا وفادتك ، وأجزلنا لك الصلات .. فما الذى بدلك ؟ ..

ــ لم أتبدل .. وإنما هو الحنين إلى موطن ..

أطل من عينيه غضب :

ـ من يضمن لى أن قصائد المدح لا يعقبها ـ فى البعد ـ قصائد الهجاء والذم ..

ـ يصعب أن أبصق فى الإناء الذى أكلت فيه ! ..

أشار بيده فى جفوة :

ـ سأبلغك فيما بعد بقرارى ! ..

٤٠٠

بم التعلل ؟.. لا أهل ولا وطن	ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمنى ذا أن يبلغنى	ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث	ما دام يصحب فيه روحك البدن(١)

٤٠٢

فأين الشباب ؟ وأين الزمان ؟..

٤٠٣ ـ ٤٠٤

الحزن ـ حتى الآن ـ لم يغادر النفوس . تأثرت كل البيوت مما جرى وكان ، فى انخفاض النيل ، وما تلاه من أحداث ..

مع ذلك ، فقد كان التهيؤ لاستقبال العيد أشبه بالفريضة التى يحرص الناس عليها ، لا يلغيها ، أو يخفف منها حزن مهما بلغ ..

عيد النحر من الأيام المشهودة فى مصر ، تعطل فيه الدواوين ، وتغلق الأسواق والدكاكين ، وتأتى الناس من شمال الوادى وجنوبه ، لمشاهدة الزينات والاحتفالات والمتفرجات ..

كنت قد قررت السفر وانتهى الأمر . أعملت الحيلة ، فأظهرت

(١) هذه الأبيات ، مطلع قصيدة كتبها أبو الطيب عندما زاد إحساسه بالحصار ، وصعب عليه الفرار من مصر .

الرغبة فى المقام بمصر ، وإن بدأت فى الإعداد للرحيل . لم أعلم حتى غلمانى شيئا مما انتويته ، وبدأت فى إعداده ، وإن أسررت بالأمر إلى بعض أصدقائى من أهل مصر ، وطلبت المساعدة ..

ها هو ذا عيد النحر يقبل . أنسب الظروف للفرار من الأسر . رسم السلطان أن يستقبل العيد بيوم ، وتعد فيه الخلع والحملانات وأنواع المبارّ لرابطة جنده ، ورابطة جيشه ، وصبيحة العيد تفرق ..

يرسل ليلة العيد حمل بغل من المال فى صرر . مكتوب على كل صرة اسم من جعلت له ، من بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج ..

بعد صلاة العيد ، يدخل المخصىّ إلى القصر الكبير ، يجلس على تخت الملك ، ويخلع بكساو وأموال على الأمراء وأرباب الوظائف والأعوان ، على العادة فى كل سنة . يرتدى الجميع التشاريف والخلف والأقبية ، ويركبون الخيول من الإصطبل السلطانى ، بها سروج وكنابيش ما بين ذهب وفضة ، وتزوج الأيامى ، وتنحر النحائر ، وتفرق على أرباب الرسوم ، وتعتق الرقاب ، وغير ذلك ..

٤٠٧ ـ ٤٠٨

العيد ..

أقيمت الأفراح ، ونصبت القلاع والقباب ، وأوقدت النيران ، وازدانت الشوارع والأسواق والقياس بالأنوار والبسط الثمينة ، وامتلأت بالمآكل والمشارب والملابس الفاخرة ، وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والرصف . وسارت فرق الملاعب والراقصين والمغنين والمهرجين . وعلت القصور والبيوت بأنواع الزينة . حتى الأخطاط والأزقة ، علقت فى مداخلها قناديل وشموع ، وانشغل الناس بالبيع والشراء ، وأعدوا أنفسهم لصلاة العيد ..

اجتمع القراء والفقهاء ، وأقيمت المطابخ ، وهيئت المطاعم

الكثيرة ، ومدت الأسمطة العظيمة ، وضربت الخيام حول الجامع العتيق للنزول للوضوء والصلاة ..

بدا الجميع مشغولين بمراسم الاحتفال ، وبما يوزعه عليهم المخصى من هدايا وصلات ..

أوعزت لمحسد والتابعين ، فدفنوا الرماح فى الرمال ، وراء المقطم ، والزاد بما يكفى لعشر ليال ، وقرب الماء بما يكفى لعشرين يومًا ..

هذه هى الفرصة التى ربما لن يتاح لى فرصة بعدها ..

٤٠٩ ـ ٤١٠

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟
أما الأحبة فالبيداء دونهم   فليت دونك بيدا دونها بيد
لولا العلى لم تجب بى ما أجوب بها   وجناء حرف ، ولا جرداء قيدود
يا ساقيى أخمر فى كئوسكما   أم فى كئوسكما هم وتسهيد ؟
أصخرة أنا ؟ مالى لا تحركنى   هذى المدام ولا هذى الأغاريد ؟
إذا أردت كميت اللون صافية   وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبه   أنى بما أنا شاك منه محسود
أمسيت أروح مثر خازنا ويدا   أنا الغنى ، وأموالى المواعيد
إنى نزلت بكذابين ، ضيفهم   عن القرى ، وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى وجودهم   من اللسان ، فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسًا من نفوسهم   إلا وفى يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبد السوء سيده   أو خانه ، فله فى مصر تمهيد ؟
صار الخصىّ إمام الآبقين بها   فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها   فقد بشمن وما تفنى العناقيد
لا تشتر العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن   يسيئ بى فيه عبد وهو محمود

ولا توهمت أن الناس قد فقدوا   وأن مثل أبى البيضاء موجود
جوعان يأكل من زادى ويمسكنى   لكى يقال عظيم القدر مقصود
من علم الأسود المخصى مكرمة   أقومه البيض أم آباؤه الصيد ؟
أم أذنه فى يد النخاس دامية   أم قدره وهو بالفلسين مردود[1]

٤١٨ ـ ٤١٩

غادرت مصر ـ للمرة الأخيرة ـ فجر يوم الأضحى . تسلل ، قبلى ، محسد ومسعود والآخرون . الجميع فى شاغل باستقبال العيد ..

أرسلت إلى أبى بكر الفرغانى ـ أحد جلساء المخصى ـ أقول له : إنى أجد وجعًا ، وللأستاذ عندى رقعة فيها مهم ، فتدفعها إليه عشية العيد عند العتمة إذا خلا ، فقد هنيته بالعيد . وذكرت عذرى فى التأخر ..

أخذ الفرغانى الرقعة . وخرجت من بيتى فى اللحظة التالية ، قاصداً الصحراء ، ومنها إلى خارج مصر ..

انطلقت ـ بجوادى ـ عبر باب الصفاء ـ الباب الذى دخلت منه ـ إلى الرملة ، فبنى جعفر على غيقة وسلمنت إلى بلبيس . منها ـ بمعونة أصدقائى ـ إلى سيناء . اخترت التيه[2] الذى ضل فيه بنو إسرائيل . إلى أين ؟.. لم يشغلنى السؤال بقدر ما شغلنى الفرار من الأسد . الرحيل إلى بلاد الله غاية ، تتضاءل أمامها كل الغايات ..

ألحفت فى الهرب ، حتى أمنت طلب كافور . رفقت ـ بعد ذلك ـ بنفسى وإبلى وخيلى وعبيدى ، فسرت معتدلاً ، وترفقت

---

(١) هذه الأبيات من آخر قصيدة كتبها المتنبى قبل الفرار من مصر .

(٢) التيه : الموضع الذى ضل فيه موسى عليه السلام وقومه . وهى أرض بين أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة من أرض الشام .

بالقافلة . لم أقصد الكوفة مباشرة ، وإنما عرجت على الحجاز . سرت فيها حتى قاربت مدينة الرسول ، فلم أدخلها . تنقلت فى مضارب الأعراب ، أربعة أشهر ونيفًا ، حتى اطمأنت إلى انعدام ما يريب ، فخرجت إلى الشام ، ومنها إلى الكوفة(١)

علمت أن المخصى بذل كل الوسائل للإتيان بى . كتب إلى عماله فى سائر الولايات ، وبذل ذخائر الرغائب لمن يبين عن موقعى . ترصدتنى العيون بكل مرصد . ثارت ورائى البادية والحاضرة من كل جانب ، لكن الأثر كان قد مسحته الرمال . قال بعض البادية : هبه سار ، فهل محا أثره ؟. وقال بعض المصريين : لعله سلك طريقًا تحت الأرض !.

لم يعلم كافور نبأ رحيلى إلا ثانى أيام العيد ، بعد يوم وليلة من انطلاقى . أطوى المفاوز ، وأجتاز الحلل والمياه ، سعياً إلى الخلاص ..

* * *

وشعر مدحت به الكركدن	بين القريض وبين الرقى
وما كان ذلك مدحا له	ولكنه كان هجو الورى

* * *

فى الطريق ، قال لى صاحبى ابن يوسف :

– وما رأيك فى الجولة القادمة يا أبا الطيب ؟.. لقد هجرت سيف الدولة ، وهجوته .. وهأنت ذا تهجر كافورًا ، وستهجوه .. أقول : ترى إلى أين سيحل بك المطاف ؟..

قلت :

– لم يبق يا ابن يوسف – بعد أن يئست من الملوك ، وبعد أن سدوا أبوابهم دونى ، إلا أمران لا ثالث لهما : إما أن أنزل من القمة

(١) دخل أبو الطيب الكوفة فى ربيع الآخر سنة إحدى وخمسين وثلثمائة.

التى صعدت إليها بعد جهد وكد ، وأعود إلى ما كنت عليه فى بداية أمرى ، فأستجدى بشعرى صغار الناس وطغامهم ، أو أن أعود إلى الكوفة ، فأقبع فى دارى ، وأهجر الناس جملة ، وأقيم بينى وبين الملوك سدًا ، فقد كفانى ما لقيت منهم ، وكفاهم ما لقوا منى . ولى الآن ثروة تكفل الراحة والنعيم وهناء العيش ..

٤٢٣

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن	يسئ بى فيه كلب وهو محمود
جوعان يأكل من زادى ويمسكنى	لكى يقال عظيم القدر مقصود(١)

٤٢٩ – ٤٣٠

أفيقا خمار الهم نغصنى الخمرا	وسكرى من الأيام جنبنى السكرا
تسر خليلى المدامة والذى	بقلبى يأبى أن أسركما سرا
لبست صروف الدهر أخشن ملبس	فعرقننى نابًا ومزقننى ظفرا
وفى كل لحظ لى ومسمع نغمة	يلاحظنى شزراً ويسمعنى هجرا
سدكت بصرف الدهر طفلاً ويافعاً	فأفنيته عزماً ولم يفننى صبرا
أريد من الأيام ما لا يريده	سواى ولا يجرى بخاطره فكرا
وأسألها ما أستحق قضاءه	وما أنا ممن رام حاجته قسرا
ولى كبد من رأى همتها النوى	فتركبنى من عزمها المركب الوعرا
تروق بنى الدنيا عجائبها ولى	فؤاد ببيض الهند لا بيضها مغرى
أخوهمٍّ رحالة لا تزال بى	نوى تقطع البيداء أو أقطع العمرا
ومن كان عزمى بين جنبيه حثه	وخيل طول الأرض فى عينه شبرا
صحبت ملوك الأرض مغتبطاً بهم	وفارقتهم ملآن من شنف صدرا

(١) هذان البيتان من قصيدة للمتنبى – كما سبق – قبل فراره من كافور الإخشيدى .

ولما رأيت العبد للحر مالكاً   أبيت إباء الحر مسترزقاً حرا
ومصر لعمرى أهل كل عجيبة   ولا مثل ذا المخصى أعجوبة بكرا
يعد إذا عد العجائب أولاً   كما يبتدا فى العد بالإصبع الصغرى
فيا هرمل الدنيا ويا عبرة الورى   ويا أيها المخصى من أمك البظرا
نويبية لم تدر أن بنيِّها الـ   ـنويبى بعد الله يعبد فى مصرا
ويستخدم البيض الكواعب كالدمى   وروم العبدى والغطارفة الغرا
قضاء من الله العلى أراده   ألا ربما كانت إرادته شرا
ولله آيات ، ولست كهذه   فإنك يا كافور آيته الكبرى
لعمرى ما دهر به أنت طيب   أيحسبنى ذا الدهر أحسبه دهرا؟!
وأكفر يا كافور حين تلوح لى   ففارقت مذ فارقتك الشرك والكفرا
عثرت بسيرى نحو مصر فلا لعا   بها ولعاً بالسير عنها ولا عثرا
فعاقبنى المخصى بالغدر جازيًا   لأن رحيلى كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا قائل الرأى ، لم أعن   بحزم ولا استصحبت فى وجهتى حجرا
وقد أرى الخنزير أنى مدحته   ولو علموا قد كان يهجى بما يطرى
جسرت على دهياء مصر ففتها   ولم يكن الدهياء إلا من استجرا
سأجلبها أشباه ما حملته من   أسنتها جرداً مقسطلة غبرا
وأطلع بيضاً كالشموس مطلة   إذا طلعت بيضاً وإن غربت حمرا
فإن بلغت نفسى المنى بعزمها   وإلا فقد أبلغت فى حرصها عذرا[1]

(١) هذه القصيدة ، قالها المتنبى فى واسط (بين البصرة والكوفة) .

٤٣٢

ألحف محمد فى تحذيرى من العودة إلى بغداد . العراق يعانى سطوة الديلم[1] . خلع معز الدولة المستكفى بالله[1] وسمل عينيه . لم تعد بغداد هى بغداد ، حاضرة الرشيد ، زينة الدنيا ، بهجة الأيام . شذاذ الآفاق يتحلقون الوزير المهلبى[2] .

ـ هل تظن أن أولى الأمر فى العراق يطمئنون إليك بعد كل ما فعله لك الإخشيدى ، وما فعلته بالإخشيدى ؟..

أهل العراق لا ينسون . وسيف الدولة يعانى المرض وحرب الروم ، والكوفة ـ مسقط الرأس ، والنشأة ، وذكريات الصبا ـ توهمت أن إقامتى فيها ستمضى إلى آخر العمر .. لكن توالى الأيام أتى بالعزلة والخمول ، فضقت بكل شىء . أهملت النصيحة ، وأمرت بشد الرحال ، سعيًا إلى بغداد ..

٤٣٤

كنت أسعد الناس حين التقيت بابن جنى . لم يخف هو أيضًا سعادته . نقل عنى الشعر الذى قلته فى مصر ، وبعد خروجى منها . سألنى فى أبيات منه ، وقرأه على . وصل إلى قولى :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب   وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وانتهى إلى قولى منها :

(١) بلاد الديلم : تقع فى شمال شرق الدولة الإسلامية . وصار للجنود الديلم ، فى أواخر الدولة العباسية ، شوكة وسيطرة على الخلفاء .

(٢) أبو القاسم عبد الله المستكفى بن المكتفى بن المعتضد . وقد حمل جند الديلم المستكفى إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، وخلع من الخلافة ، ونهبت داره ، وسملت عيناه . ولم يزل فى دار السلطنة معتقلاً ، حتى توفى سنة ٣٣٨ .

(٣) المهلبى الوزير : هو الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون ، من ولد المهلب بن أبى صفرة . كان كاتب المعز بن بويه . ثم أصبح وزيره .

لى الله ذى الدنيـا مناخـًا لراكب   فكل بعيـد الهـم فيها معـذب

قال لى :

ـ يعز على أن يكون هذا الشعر فى ممدوح غير سيف الدولة ..

قلت :

ـ حذرناه وأنذرناه ، فما نفع الحذر . ألست القائل فيه :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك   ولا تعطـين الناس ما أنا قائـل

فهو الذى أعطانى لكافور ، بسوء تدبيره ، وقلة تمييزه ..

قرأ على قولى فى كافور :

وما طربـى لما رأيتـك بدعـة   لقد كنت أرجـو أن أراك فأطرب

قال :

ـ لم تزد على أن جعلته أبا زنة(١)

٤٣٥

قبحـاً بوجهـك يـا زمـان فإنـه   وجـد لـه مـن كـل لـوم يرفـع
أيمـوت مثـل أبى شجاع فاتـك   ويعيش حاسده الخصى الأوكع(٢)

٤٣٨ ـ ٤٤٠

هل عاد أبو الطيب القديم ؟..

توهم الوزير المهلبى أن نزولى فى بغداد يغريه بأن أمدحه . قصائدى تخطئ طريقها لغير الملوك والأمراء . المخصى الذى هجرته بقصائد كأنها المدح ، كان ملكًا ، ألحف المهلبى فى رجائه ، ووسط الوسطاء ، فألححت فى اعتذارى . قيل لى إن الوزير أعد لى عشرة آلاف درهم ، وثيابا كثيرة ، مقطوعة وصحاحًا ،

(١) أبا زنة : كنية القرد .

(٢) هذان البيتان ، من قصيدة للمتنبى ، بعد سماعه بوفاة فاتك .

وفرسًا بمركب . يهبنى ذلك كله عند مديحى له .. لكن قريحتى لم تسعفنى ، أو لعلها أبت . لم أمدح غير الملوك . وكنت كذلك أنفر من سخافة المهلبى ، وما اشتهر عنه من الهزل ، واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه . أذهلنى التحلل فى مجلسه . حتى القضاة اجتمعوا فيه ليلاً ، وشربوا الخمر ، فبلغ بهم إلى غمس لحاهم بدنان الخمر ، ورش بعضهم بعضًا بلحاهم الثملة ..

حرض الرجل شعراء بغداد(١) فأذيعت قصائد لهم ، تهجونى وتنال من عرضى . غاظه ما تصور أنى قصدته ، ففرق ما كان أعده على الشعراء ، وزادهم مدة إقامتى من الإحسان والعطاء ..

جوابى عن السؤال : لماذا تركت لقاء الملوك ؟.. القوة هى العلاج الوحيد لإزالة الحجاب بينى وبينهم . الملوك أرانب فى قصائدى ، مفتحة عيونهم نيام ..

كان ذلك فى الزمان القديم ، فماذا جرى ؟..

أتذكر الرسالة التى دست أسفل باب بيتى فى مصر الفسطاط : « الحياة أنفقت فى مدح الولاة والأمراء والملوك . تخترع معانى الكرم والفتوة ، فتنسبها إليهم . ترحل من بلد إلى بلد طلبا لمنحهم وعطاياهم ، تقف على أبوابهم انتظارا لمنحهم ، كأنك المهرج فى مجالس اللهو والعبث » ..ضقت بكل ذلك . أبرمت بالإلحاح فى طلب المدح . أريد حياة جديدة ، مخالفة لما سبق ..

لم كن آمنا فى الكوفة ولا بغداد ولا حلب ولا الفسطاط . لم أكن آمنا فى أى مكان ، فى أى يوم . أنام وأتوقع ألا أصحو . أدخل على الملك يصحبنى السؤال : هل تسعده قصيدتى ، فيجزل لى

(١) من شعراء بغداد الذين حرضهم المهلبى ضد المتنبى : ابن الحجاج ، وابن سكرة ، والحاتمى ..

العطاء ، أو يرى فى كلماتها ما يغضبه ، فيدفع بى إلى السجن ؟..

لم تكن حياة دعة واطمئنان . أنجو من الموت تحت سنابك الخيل ، أو بضربات السيوف ، فأعانى الجواسيس والبصاصين والواشين والمؤامرات والذل والمهانة . النعل والخف المطية ، ولباس القطن الخشن ، وعلى الحاجب يجيزنى على قصيدة بدينار ، وأيام التشرد ـ عقب الخروج من السجن ـ خوفًا من السلطان . يصعب أن أدخل أرض الإخشيديين حتى لا يحدث ما حدث من قبل ، فأدخل السجن . لا أستطيع أن أدنو من أرض ابن رائق فى الشام ، وأعالى الفرات . بدر يطاردنى ، وبدر أثير عند ابن رائق . أتخفى فى البادية ، حتى عن البدو أنفسهم . أستتر فى الحواضر ، فلا يعرفنى أحد . سيف الدولة يضربنى بالدواة فى وجهى . أقف بين يدى المخصى ، وكنت أنشد جالسًا عند سيف الدولة[١] . ابن خالوية[٢] يخرج مفتاحه من كمه ، فيشجنى به ، حتى يسيل دمى ، فيخضب وجهى . الأمير يرى فلا يصنع شيئًا . ابن الحجاج[٣] يمسك بلجام جوادى ـ بتحريض من المهلبى ـ وينشد شعرًا مقذعًا ، ينال فيه منى ، على ملأ من الناس . فى جعبتى الصبر وحده ، حتى ينتهى .

---

(١) يشير أبو الطيب إلى أنه كان يشترط على سيف الدولة أن ينشده قصائده وهو جالس ، بعكس الحال فى مجلس الإخشيدى .

(٢) ابن خالوية : هو أبو عبد الله الحسين بن خالويه . من كبار أهل اللغة ، وله كتب كثيرة فى اللغة . أصله من همدان ، ودخل بغداد ، ثم انتقل إلى الشام ، واستوطن حلب ، وتوفى بها فى ٣٧٠ هـ .

(٣) ابن الحجاج : هو حسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد الحجاج النيلى البغدادى ، أحد شعراء العصر البويهى .

٤٤٤

إلى أى حين أنت فى زى محرم وحتى متى فى شقاوة ، وإلى كم ؟
وإلا تمت تحت السيوف مكرمًا تمت وتقاس الذل غير مكرم
فثب واثقًا بالله وثبة ماجد
يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم[١]

٤٤٥

العودة إلى سيف الدولة صعبة ، بعد أن قلت فيه ما قلت ، وأنا فى ضيافة الأسود .. وماذا تفيد قصائدى فى الهزائم التى لحقت بسيف الدولة على أيدى البيزنطيين ؟..

٤٤٧ ـ ٤٥١

لست أدرى ، على أى نحو شغلنى الأمر ، ولا كيف أو متى اتخذت قرارى ؟..

وفدت الأنباء بثورات المصريين ضد كافور وأعوانه . انهار سلطانه ، وانحل أمره ، وخضع مطلقًا لعبث الجند ، ولسطوة الأعوان والخدم . عجز حتى أن يجمع أطراف الدولة ، ويحزم أمرها ..

تبادل أعوانه مع العصابات الوافدة مذكرات ووثائق ، ووقعوا أوراقًا . خفتت ـ بعدها ـ حمية الجند . توهموا السلام فى قبضة اليد ، ولم يفكروا فى الآتى وقادم الأيام . ألفوا حياة الدعة والراحة ، وانصرفوا إلى حياة المدن وتنمية الثروات . بنى سمول الإخشيدى مدينة بالقرب من بلبيس ، أسكنهم بها ، ووفر لها كل وسائل الراحة . المضارب والخيام

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة ، كتبها أبو الطيب فى صباه . بالتحديد ، بعد عودته من البادية . ولعله استعادها لأنها أجادت التعبير عن الرحلة التى كان يعد لها نفسه .

قباله ـ أو بالقرب من ـ البيوت ، والحدائق تتوسط ذلك كله . الملاهي والاستراحات والمدارس والمستشفيات ، أنشئت بعناية ملحوظة ، فلا يحتاج الجند للنزول إلى المدن إلا للفسحة ، أو للزيارة . أغدق سمول عليهم ، أسبغ من فضله وإحسانه ، فميزهم عن بقية الناس . زاد في مرتباتهم ، فبلغت أضعاف ما كان يتقاضاه بقية موظفي المخصي . أضاف إليها علاوات ومنحًا وكسوات ، تمنح أول كل عام . خصص رواتب يومية من اللحم والخبز والتوابل والعليق . فرق عليهم الإقطاعات الثقال ، وخلع الملابس الفاخرة ، والخيول المطهمة ، والعطايا الجزيلة ، وأرضاهم بكل ما وسعه ..

أدرك المخصي خطورة تدخل الجيش في الحكم ، فرضي عن هذا الاتجاه ، وشجعه ، ومولة من بيت المال ، ومن أمواله أيضًا ..

خشي الأهالي من ذلك الأمر بالذات . غدر العصابات الوافدة مشهور ، ودعاواهم بالسلام لم تمنع جراد الحدود(١) ـ في عهود سابقة ـ من أكل الأخضر واليابس . وحين علت الاحتجاجات بأن خيام الجند ـ أينما كانت ـ فهي للإقامة المؤقتة ، وتعلم فنون الحرب . أما العيش الدائم ، ففي المدن والقرى ، وحيث يسكن الناس .. حين حدث ذلك ، أعلن سمول الإخشيدي ـ ومن بعده ابن حنزابة ـ أن وظيفة الجند رد الأعداء ، وحماية الأراضي والثغور ، وتجميعهم في المدن الجديدة ، الجميلة ، يعني الحياة في ظل العسكرية ، فلا يتأثرون بلين الحياة في المدن ..

* * *

بدت العودة إلى مصر مطمحًا . تضاءلت أمامه كل الطموحات . لا نبوة ولا إمارة ولا مقابل قصائد . أحن إلى الناس والنيل والأهرام

---

(١) المقصود ـ هنا ـ عصابات الحدود .

والجوامع والمساجد والأديرة والكنائس والمقطم والوادي والنواطير والسواقي ..

قال لي محسد ، وأنا أغادر مصر للمرة الأخيرة :

ـ كان الأهالي ينتظرون قصائدك في تنبيه كافور إلى مصالحهم .. لا تمدحه ولا تذمه .. اكشف له عما يريده الناس .. عن احتياجاتهم ، وما يبتغون !..

* * *

من بعيد ، أتأمل ما جرى وكان . الملامح تبدو أكثر وضوحًا مما لو كنت داخلها . تحركات أهل مصر وسخطهم وشكاياتهم ، وما يعتمل في النفوس من عوامل التمرد والثورة . السلاح الذي يجري تخزينه ، المنشورات التي تروي عن الفساد والشرور والمظالم ، الأحاديث الساخطة الرافضة الثائرة ، منذ الغروب إلى مطلع الفجر ، في الأماكن البعيدة ، والمعتمة ، والتي لا يفطن إليها أعوان الأسود ..

كل ما جرى هوامش في حياتي ، زوائد أتخلص منها بالإهمال ، وبهز الرأس . الإمارة أجرت قصائد المدح للمخصي ، أحالت السواد شمسًا(١) . طالت المراوغة ، فزاد الإصرار على ما أبتغي . أهملت حتى العيون والأرصاد التي لاحقت خطواتي ..

من بعيد ، تغيرت الصورة ، قسماتها وملامحها وألوانها وظلالها . يتوضح ما كنت أتغافله ، أو أنني لم أره . هؤلاء الذين لمحوا أو أبانوا ، ثم انطلقوا في الشوارع ينادون بالثورة . هل يعيدون النفس الضائعة ؟ هل يكرون الخيط إلى بدايته ؟ لماذا عانيت

---

(١) لعله يعني قصيدته الشهيرة ، التي جاء فيها ، في مدح الإخشيدي :

تفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء

الأسر والسجن ؟ وما الذى يدل الأمور ؟..

الولاية هدف ، طريقها محفوفة بالظلال والاستكانة وظلم الآخرين . حملنى شنآن المخصى على أن أهجو المصريين ، أرميهم بالجهل الفاضح . قال لى رسل عبد الرحمن السكندرى : أى ذنب جناه المصريون ، فاستحقوا كل هذا التحقير والازدراء ؟. ذكرنى السكندرى ــ بواسطتهم ــ أننى نزلت بمصر بغير دعوة من أهلها . لم يغرروا بى ، وأطعمونى حيث لا مطمع ، ولا وعدونى ثم أخلفوا ما وعدوا . هل إخفاقك فى الحصول على ما ابتغيت ، وما وعد المخصى بتلبيته ، ذريعة للنقمة على المصريين ، والانتقام منهم؟(١) . شتمت المخصى ، فشتمت مصر معه ، وأضحكت من أهلها ، ومن جهلها ، الأمم . أغاية الدين أن تحفوا شواربكم . أتذكر قول ابن رشدين ، ونحن جالسان فى بيته المطل على النيل :

ــ يا أبا الطيب .. أنت تطلب الولاية .. فهل تطلب من المصريين أن يجاهدوا فى سبيل ولايتك .. هل يستحلون دماء من يحول دون فوزك بالولاية ؟..

يلومنى رسل السكندرى : ما لك لم تذكر الكرامة ، وعزة النفس والأمة التى بلا رحم ، والأعبد القزم ، وإحفاء الشوارب ، والقفا الذى ينادى من يصفعه ؟.. ما لم لم تذكر ذلك كله يوم النزول إلى مصر ، والنزول بساحة آمال كافور ، تتملقه ، وتسرف فى مدحه . هل لو وليت صيدا أو مقاطعة فى الصعيد ، كنت تهجو المصريين؟.. وهل كان المصريون ــ قبل أن يخلف المخصى وعده ــ إلا الأسد فى مصر الشرى أو عرينه ؟!..

(١) فى قراءاتنا للمصادر التاريخية ، فإن بعضها يذهب إلى أن المتنبى تجاوز بهجائه كافوراً ، إلى الشعب المصرى . ومعظمها يؤكد أن المقصود بكل هجائه ــ حتى الأبيات التى مست الشعب المصرى برذاذها ـ كافوراً وحده ! ..

ألقيت قصائدى فى السلاطين والأمراء ، لا سواهم من الحكام والوزراء والقادة . فيما عدا فاتك ــ الذى استأذنت الإخشيدى فى مدحه ــ فإن قصائدى اقتصرت على كافور ، مآثره ومناقبه وعطاياه. لو أنى عريت ــ بقاصدى ــ ابن حنزابة والقاضى بدرًا وأعوان السوء ، لكان السهم أنفذ ، والمرمى أولى بالإصابة ، لو.......(١)

يحدثنى رسل السكندرى :

ــ أنت صناجة العرب ، ورب قافيتها الشرود . قصائدك ملأت الآفاق بالمدح ، وشغلت الدنيا . فماذا لو حققت الفعل ذاته بإعلان الحدث المرتقب ؟.. تنشر ثورة المصريين على الطاغوت والطغمة الفاسدة ؟ تمسى قصائدك الصوت الذى يرتفع فى كل الأقطار . يتحدث عن سريان الدم فى الجسد للذى توهموه مواتا ؟.. انبلاج الفجر من الليل الذى طالت رقدته ؟..

٤٥٨

إذا استشفيت من داء بداء ... فأقتل ما أعلك ما شفاكا
وأنى شئت ، يا طرقى ، فكونى ... أذاة ، أو نجاة ، أو هلاكا

٤٦٠

أثر فى سؤال عضد الدولة(٢) :

(١)

(٢) عضد الدولة : أبو شجاع فنا خسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن ابن أبى شجاع الديلمى ، من أعقاب سابور ذى الأكتاف . نسبه ينتهى إلى ملوك بنى ساسان . وهو أول من خوطب بالملك فى الاسلام ، وأول من خطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة ، وأول من لقب شاهنشاه . وكان أديباً محبا للشعر والشعراء .

كان الرحيل إلى مصر قد احتوانى تمامًا ، فهززت رأسى ، أتعجل الموافقة ..

استأذنت عضد الدولة فى المسير عنه ، أقضى حوائج فى نفسى ، وأعود . لم تكن العودة فى نيتى ، ولا تهيأت لها . السفر إلى مصر - عبر الصحراء - هدفى الذى لن أتحول عنه[١] ..

أذن لى عضد الدولة . أمر ، فخلعت على الخلع الخاصة ، وقيدت إلىّ الحملان الخاص ، وأعاد صلتى بالمال الكثير ..

قضيت ليلتى الأخيرة أناوش الشعر ، ويناوشنى . يهمنى أن أرد للرجل بعض ما أسداه لى . هذه - وإن كان لا يعلم - قصيدتى الأخيرة إليه . من واجبى أن أمدحه بما وسعنى . من حقه أن يصل إليه امتنانى :

فلو أنى استطعت خفضت طرفى   فلم أبصر به حتى أراكا

لن أنام ليلتى ، حتى أستكمل ما بدأت .

٤٦٢

من لا تشابهه الأحياء فى شيم   أمسى تشابهه الأموات فى الرمم
عدمته وكأنى سرت أطلبه   فما تزيدنى الدنيا على العدم
مازلت أضحك إبلى كلما نظرت   إلى من اختضبت أخفاقها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها   ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامى قوائل لى   المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبدًا بعد الكتاب به   فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتنى ودوائى ما أشرت به   فإن غفلت فدائى قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندى حاجته   أجاب كل سؤال عن هلم بلم[٢]

(١) خلت كل المصادر من الجهة التى كان يقصدها المتنبى فى ختام رحلته .. ولكنه - فى هذه الأوراق - يصرح بتلك الجهة .

(٢) بقية القصيدة ، وشرحها ، فى الديوان .

٤٦٤

وقرت بغالى بكل شىء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والأدوات الكثيرة . إذا سافرت ، لا أخلف فى منزلى درهمًا ، ولا شيئا يساويه . كنت أكثر إشفاقًا على أوراقى : انتخبتها ، وأحكمتها قراءة وتصحيحًا ..

٤٦٥

غير أن الفتى يلاقى المنايا   كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحى   لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد   فمن العجز أن تكون جبانا

نزلت - لساعات - فى بيت أبى نصر . لقينى هاشًا باشًا ، وأحسن الترحيب بى . رويت له عن ابن العميد[١] وعضد الدولة . ما أفاء كلاهما على من رعاية وحسن وفادة . سألنى وأنا أغادره :

- على أى شىء أنت مجمع ؟..

- على أن أتخذ الليل مركبًا ، فإن السير فيه يخف على ..

- هذا هو الصواب ..

أضاف :

- والرأى أن يكون معك من رجالة هذه البلدة ، الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة ، جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد ..

أدهشتنى الكلمات ، فسألت :

(١) ابن العميد : هو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد . يلقب بالأستاذ الرئيس ، وكاتب الشرق . كان وزيراً لعضد الدولة البويهى . صاحب طريقة الشعر المنثور . توفى سنة ٣٦٠ هـ .

ـ لم قلت هذا القول ؟..

دارى انفعاله :

ـ لتستأنس بهم ..

قلت :

ـ أما والجراز فى عنقى(١) ، فما حاجة بى إلى مؤنس غيره ..

ـ الأمر كما تقول .. والرأى فى الذى أشرت به عليك ..

أظهرت قلقى :

ـ تلويحك ينبئ عن تعريض ، وتعريضك ينبئ عن تصريح .. فعرفنى الأمر ، وبين لى الخطب ..

قال :

ـ أتدرى يا أبا الطيب .. أنت لم تحسن كسب ود الناس . لو أنك جاملتهم ، واتبعت سياسة المداراة ، لكففت عن نفسك عداوة الكثيرين ..

أردف فى تألم :

ـ إن هذا الجاهل فاتكا الأسدى(٢) كان عندى منذ ثلاثة أيام . وهو غير راض عنك ، لأنك هجوت ابن أخته ضبة . وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراز والتيقظ ، ومعه أيضا نحو العشرين من بنى عمه ، قولهم مثل قوله ..

قال تابعى مفلح :

ـ الصواب ما رآه أبو نصر .. خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد ..

غاظنى تدخل الخادم فيما لا شأن له به . شتمته شتمًا قاسيًا ، وقلت: والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأنى سرت فى خفارة أحد

---

(١) الجراز : كقراب السيف القاطع .

(٢) سمى " فاتك " لسفكه الدماء ، وإقدامه على خوض المعارك .

غير سيفى . إنه عزائى عن الخفراء والمبذرقين ..

قال أبو نصر :

ـ وأنا أوجه قومًا من قبلى فى حاجة ، يسيرون بسيرك ، وهم فى خفارتك ..

قلت :

ـ والله لا فعلت شيئًا من هذا ..

وضغطت على الكلمات :

ـ يا أبا نصر .. أبخرء الطير تخشينى ومن عبيد العصا تخاف علىّ؟!.. والله لو أن مخصرتى هذه ملقاة على شاطئ الفرات ، وبنو ضبة متعطشون بخمس(١) والماء يلمع كبطون الحيات ، وما جرؤ لهم خف(٢) ولا ظلف(٣) أن يرده . معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين ..

قال :

ـ قل إن شاء الله !..

قلت :

ـ هى كلمة مقولة ، لا تدفع مقضيًا ولا تستجلب آتيا ..

وانصرفت غير آبه ، وإن أعملت فكرى ـ فيما بعد ـ فانتويت السير فى الجانب الأيسر من دجلة . تصحبنى أسرتى ، ويحرسنى عبيدى ، ويؤنسنى الطريق ، هؤلاء الذين يقيمون على جانب النهر ..

إذا كانت السلامة تصحبنى فى أعمال فارس ، فهل تفارقنى فى بلاد العرب ؟..

---

(١) الخمس من أظماء الإبل ، وهو أن ترد الإبل يوما . ثم ترعى ثلاثة أيام ، ثم ترد فى اليوم الرابع .

(٢) الخف : الإبل . (٣) الظلف : ذو الحوافر كالبقر والغنم .

٤٦٩

هذا هو الثلث الأخير من شعبان(١) ، فهل يتاح لى الوصول إلى مصر قبل شهر الصوم ..

---

(١) لعله يقصد شعبان ٣٥٤ هـ . الموافق ٩٦٥ م . ففى هذا الشهر لقى أبو الطيب المتنبى مصرعه على أيدى فاتك ورجاله . والثابت تاريخيًا أن المتنبى صادف فى طريقه من شيراز إلى بغداد ، فالكوفة ، فاتك بن أبى جهل الأسدى ، على رأس جماعة من أعوانه . وكان أبو الطيب قد هجاه بيائية معروفة ، فهجم للانتقام . وتؤكد الروايات أن أبا الطيب تلقى التحذير من تربص فاتك به فى « واسط » ، وأن أبا نصر الجبلى قال إن فاتكًا الأسدى الذى هجاه المتنبى فى الكوفة ، قبل سفره إلى ابن العميد ، يريد به السوء ، ونصح له أن يرجئ سفره ، أو يستصحب عددًا كافيًا من الحراس ، فأبى المتنبى ، وواصل رحلته ، وليس معه إلا ابنه وغلمانه ، حتى لقيه فاتك وأعوانه فى النعمانية بالقرب من دير العاقول . وحين هم أبو الطيب بالفرار من وجه مهاجميه ، قال له أحد غلمانه : لا يتحدث عنك الناس بالفرار وأنت القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال له المتنبى : قتلتنى قتلك الله !..

ودار قتال ، قتل فيه أبو الطيب وابنه وكل أعوانه . وكان فى الواحدة والخمسين من عمره . واستولى فاتك وأعوانه على كل ما كان مع المتنبى من متاع وأوراق وأموال. ومن جملة ما كان معه ديوانا أبى تمام والبحترى بخطه.

وقيل إنه من بين ما عثر عليه فى متاعه ، قصيدتان فى هجاء كافور ، ومدح سيف الدولة . إحداهما تقول :

قطعت بسيرى كل يهماء مفزع ... وجبت بخيلى كل صرماء يلقع
وثلمت سيفى فى رءوس وأذرع ... وحطمت رمحى فى نحور وأضلع
وصيّرت رأيى بعد عزمى رائدى ... وخلفت آراء توالت بمسمعى
ولم أترك أمرًا أخاف اغتياله ... ولا طمعت نفسى إلى غير مطمع =

= وفارقت مصرًا والأسيود عينه ... حذار مسيرى تستهل بأدمع
ألم تفهم الخنثى مقالى وأننى ... أفارق من أقلى بقلب مشيع
ولا أرعوى إلا إلى من يودنى ... ولا يطبينى منزل غير ممرع
أبا النّتن كم قيدتنى بمواعد ... مخافة نظم للفؤاد مروع
وقدرت من فرط الجهالة أننى ... أقيم على كذب رصيف مضيع
أقيم على عبد خصىّ منافق ... لئيم ردىء الفعل للجود مدعى
وأترك سيف الدولة الملك الرضا ... كريم المحيا أروعاً وابن أروع
فتى بحره عذب ومقصده غنى ... ومرتع مرعى جوده خير مرتع
تظل إذا ما جئته الدهر آمنا ... بخير مكان ، بل بأشرف موضع

أما هذه الأوراق ، فلم تشر إليها رواية ما ، حتى قيض الله لمؤلف هذه السطور أن يعثر عليها ، ويسعى إلى تحقيقها وتقديمها..

وقد استعنت فى تحقيق هذه الأوراق بمصادر ومراجع ، من بينها ديوان المتنبى (وقد أحلت القارئ إلى الديوان فى شرح القصائد التى تتضمنها الأوراق) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ليوسف البديعى ، مع المتنبى لطه حسين ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، خطط المقريزى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ، يتيمة الدهر للثعالبى ، المتنبى لمحمود محمد شاكر ، ذكرى أبى الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام ، أبى الطيب المتنبى لمحمد كمال حلمى ، المتنبى لشفيق جبرى ، الأعداد الخاصة بالمتنبى من مجلات : الهلال (١٩٣٥) المقتطف (١٩٣٦) دار العلوم (١٩٣٦) المورد العراقية (١٩٧٧) .

مؤلفات محمد جبريل

روايـــات :

١ ــ الأسوار (١٩٧٢) هيئة الكتاب ــ نفد
٢ ــ إمام آخر الزمان (١٩٨٤) مكتبة مصر ـ نفد
٣ ــ قاضي البهار ينزل البحر (١٩٨٩) هيئة الكتاب
٤ ــ الصهبة (١٩٩٠) هيئة الكتاب
٥ ــ قلعة الجبل (١٩٩١) روايات الهلال
٦ ــ النظر إلى أسفل (١٩٩٣) هيئة الكتاب
٧ ــ الخليج (١٩٩٣) هيئة الكتاب
٨ ــ اعترافات سيد القرية (١٩٩٤) روايات الهلال
٩ ــ زهرة الصباح (١٩٩٥) هيئة الكتاب .
١٠ ــ من أوراق أبي الطيب المتنبى (١٩٩٥) الطبعة الثانية ـ مكتبة مصر .

قصص قصيرة :

١١ ــ تلك اللحظة (١٩٧٠) نفد .
١٢ ــ انعكاسات الأيام العصيبة (١٩٨١) ــ مكتبة مصر ــ نفد
١٣ ــ هل ؟ (١٩٨٧) هيئة الكتاب

كتب أخرى :

١٤ ــ مصر فى قصص كتابها المعاصرين (١٩٧٣) الكتاب الحائز على جائزة الدولة ـ هيئة الكتاب
١٥ ــ مصر .. من يريدها بسوء ؟ (١٩٨٦) ـ دار الحرية
١٦ ــ نجيب محفوظ : صداقة جيلين (١٩٩٣) ـ هيئة قصور الثقافة .
١٧ ــ السحار : رحلة إلى السيرة النبوية (١٩٩٥) ــ مكتبة مصر .
١٨ ــ آباء الستينيات : جيل لجنة النشر للجامعيين (١٩٩٥) ـ مكتبة مصر .

* * * *

رقم الإيداع ٩٥/٩٧١٥
الترقيم الدولى : 0 - 0724 - 11 - 977